

الطبعة الأولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

جميع حقوق الطبع محفوظة

دار الشروق

بيروت: ص.ب. ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥١٠١ - رقيتا ناشروك

تلکڻ: SHOROK 20175 LE

القاهرة: ١٦ شارع حواد حسي - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - رقيتا، ناشروك

تلکڻ: SHOROK UN 83091

SHOROK INTERNATIONAL, 318/319 REGENT STREET, LONDON W1 UK TEL 037274374

TELEX SHOROK 267780

محمد عفيفي ترانيهم في ظل قمارا

دار الشروق

تقديم

هذا هو آخر ما كتب محمد عفيفي ، قبل أن ينتقل إلى الـ
ولا نملك أن عالم محمد عفيفي الآخر سيكون بمثل بساطة وجه
وصديق عالمه الأول ، عالمه الأرضي .. بيته وحديقته اللذين .
حياته ، خاصة آخر أيامها ، يتأمل ما حوله بعين فنان و
وعين فيلسوف .

إن أجمل ما في هذا الكتاب هو نكران الذات الفني
التعبير - فعفيفي يكتب عن العالم من حوله ، وهو في وسطه
ولكنك لا تشعر لحظة بوجوده هو ، أي الكاتب ، إنه يحوّل
إطار أو نافذة سحرية متحركة ، يوجهها نحو تفاصيل وعنا
العادية ، فترى من خلالها العاديّ وقد تحوّل إلى شيء غير عاديّ
إلى عمل فني ، كل الأشياء إذا رأيته من خلال نافذة مح
السحرية ، كل الأشياء ، تكتسي شفافية غريبة تبوح لك وتظ

وأسرارها ، أسرارها الجميلة .. أو سرّ جمالها . كل الأشياء وأيسطها
 بقع الضوء على مقاعد الحديقة ، أزهار الياسمين على بساط الغرفة ،
 الوجوه والأشخاص في زهرات البانسيه ، القسط ، الكلاب ،
 الحشرات .. العصافير .. الحياة .. المرض .. الموت .. كلها تتحول
 إلى تماثيل بللورية شفافة ، يرفرف حولها فراشٌ أبيض يلمسها بأجنحة
 رقيقة من أسلوب محمد عفيفي ، الذي يتنقل بيسر وسلاسة وراحة تامة ،
 بين العلم ، أو التفسير العلمي لظواهر الحياة وبين التأمل الفلسفي الفني
 الساخر لتلك الحياة .

هل كانت هذه السطور هي دعاء محمد عفيفي الأخير ، هل
 كانت دعاء وتسبيح فنان يتقرب من ربه عن طريق التأمل الفني في
 بديع خلقه هو .. الفنان الأعظم ؟

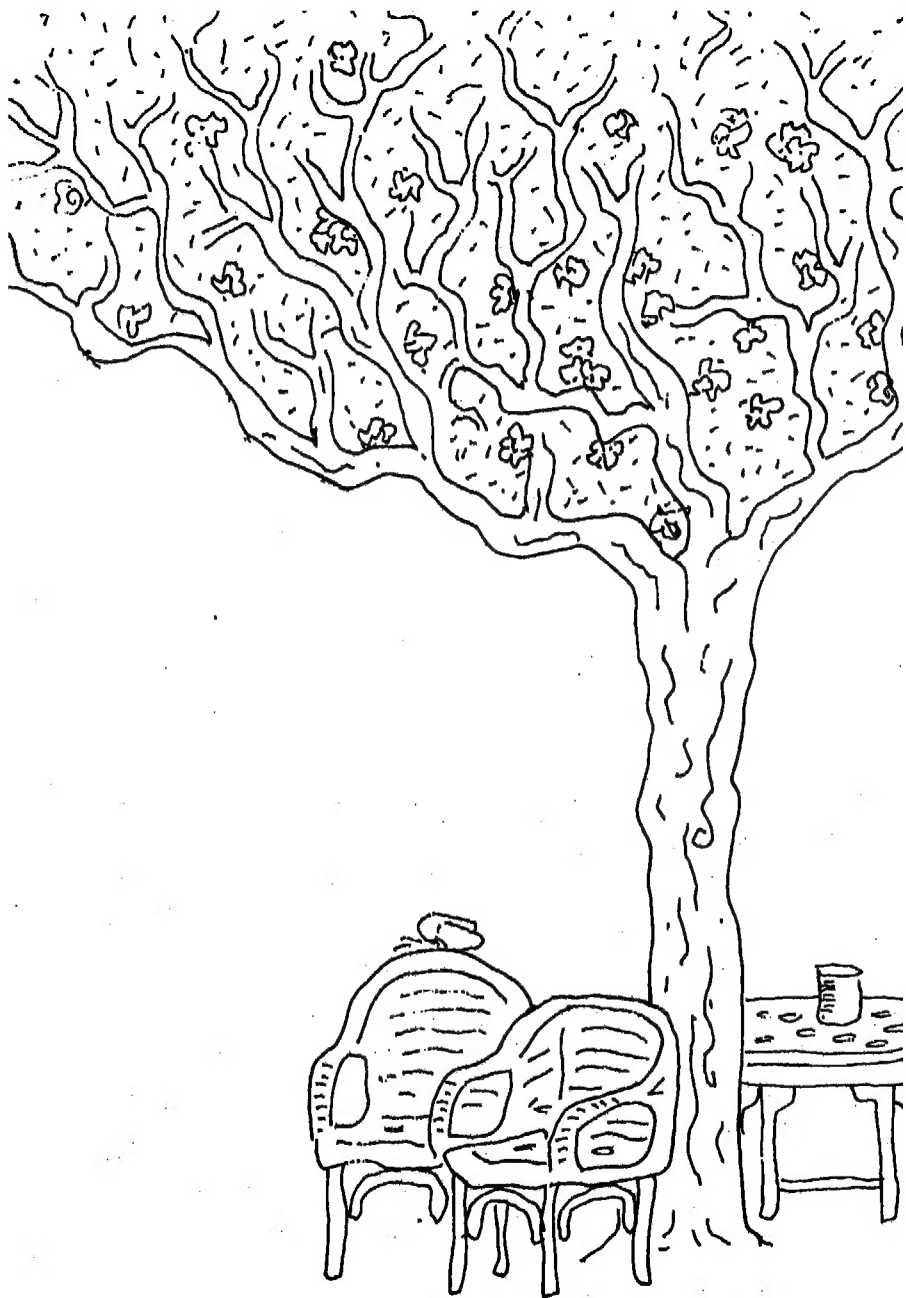
حلمي التوني



«على الكرسي القش الأصفر العتيق»

«ملاحظات في حديقة مشمسة على نماذج من الحيوان
والطير والشجر وبعض بني البشر ، لرجل عجوز يجلس
على الكرسي المذكور» .

محمد علفي





الفصل الأول

« فراشة جديدة كل يوم - ليمونة على دماغ القطعة السوداء - الثقيلة
ومغزاها - ماذا تقول العصافير - الضفدع الحائر - الشاي بنكهة من
نور الضحى » .

الفراشة البيضاء

الفراشة البيضاء ومضت فوق السور النبائي المرتفع كعادتها كل صباح ، وكعادتي أسفت لأنني يجب أن استبعد ذلك الشعور اللطيف بأنها هي نفس الفراشة التي تزور حديقتي كل يوم . لكن أحداً لا يستطيع أن يصادر حريتي في الاقتراض الذي يريحي ، وتلك الفراشة الواحدة الفرضية قد أسميتها بيني وبين نفسي فروشة . ورفرت فروشة هنا وهناك باحثة عن رزقها حتى جذبتها وليمة الألوان في حوض « البانسية » فألقت بنفسها فيها ، وعلى إحدى الزهور حطت مبسوطة الجناحين تنهل في حب من عذب الرحيق . وكان بجانبها زهرة رسم عليها بالأصفر والبني وجه قرد صغير ضاحك ، وأخرى عليها طفل بنفسجي مذعور ، مكان لطيف لفراشة لطيفة بيضاء .

بجانبي حيث جلست على الكرسي القش الأصفر العتيق ، مستظلاً بصديقتي العزيزة تمارا ، التي من خلال أغصانها تتساقط عشرات من دوائر الضوء الصغيرة البيضاء ، وتنفرش حولي مثل قروش فضية متراقصة . على النجيلة الخضراء التي تكسو الأرض حولي ، وعلى الترابيزة المستديرة المصنوعة من الخشب الخشن الأبيض - الأبيض الغامق إذا جاز التعبير . وفوقها كوب الشاي الكبير الخزف البني ، الذي انكسرت أذنه من زمان فحمدت الله على الخلاص منها ، وقرش فضي سقط على سطح الشاي

متلاعباً كأنه عين تغمز ، سيكون لطيفاً أن أذوق شاي بنكهة من نور الضحى .

هنا أحب الجلوس في هذا الجو المعتدل من أوائل الخريف ، حيث أحظى من الشمس بدفئتها دون لسعتها . فليس من أجل عطر تمارا أجلس تحتها ، لأنها قلما تجود بعطرها إلا قبيل الغروب والنهار يسلم المفاتيح للمساء . وأمانة دهشت عندما أخبرتها للمرة الأولى منذ سنوات أنني قد أسميت هذه الشجرة تمارا ، ولكنها لم تلبث أن قالت معترفة :

- طب والنبي لايق عليها !

فقلت لها شارحاً سر تلك التسمية :

- شجرة تمرحنة ح اقول لها يا ايه الا يا تمارا ؟

- وانت لازم تناديه باسمها ؟

- طبعاً ، عشان تعرف ابي باكلهما هي .

وكانت أمانة تعرف أنني أحب أن أكلم الأشجار (غير متوقع منها أن ترد علي طبعاً) فاكثفت على سبيل التعليق بأن تصعبت وقالت مازحة :

- ربنا يكملك بعقلك !

وأما عن زهيرة فهي تعرف كيف بدأ اسمها . في أول الأمر بتزهيرة نسبة إلى ليمونها ، ثم أخذت الباء تذوب يوماً بعد يوم في أكوام العصير حتى أصبحت زهيرة .

وأغصان زهيرة تتلامس ، وفي بعض المواضع تتشابك ، مع أغصان جاريتها تمارا في محبة وود أكيد . وكان طبيعياً أن تبدو مزهوة بما حملت من الحبات الناضجة الصفراء ، المنتفخة بالعصير كما يجب أن يكون البتزهير . وحكيم قديم زار مصر ورأى ليمونها فقال « عجبت لهؤلاء

القوم كيف يمرضون وعندهم الليمون ! » ولا شك أنه كان صادق الحدس في إدراكه لفضل الليمون من قبل أن يعرف الناس شيئاً عن الفيتامينات ، وما أظنه كان محتاجاً في استكشافه لقيمة الليمون إلى أكثر من أن يرفع إلى أنفه ليمونة صفراء كهذه ويشمها ، ما لم يكن قد حكها بظفره ومسح لحيته بما نضح على قشرتها من عصيرها الشافي ، فصار يملأ لنفسه كل يوم كوباً من العصير ويشربه على الريق ليزداد حكمة .

وعلى غصن من زهيرة حط عصفوران ، يتصايحان وفي بعض شتونهما يتجادلان . ولقد كنت زمان أظنهما يتغازلان كما زعم الشاعر ويتناجيان بأعذب الألحان ، حتى علمني طول الجلوس في الحديقة أنهما في حقيقة الأمر ، وفي معظم الأحيان ، يتخانقان ويتبادلان من الشتائم أوسخ ما يعرفان . ولقد حاولت أن أتخيل نوع الشتائم التي تتبادلها العصفافير فعجزت عن ذلك ، وطلعت مليئة بالبذاءات البشرية التي تجعلني أنزه عنها ذلك الجنس اللطيف من الكائنات المجنحة .

وما لبث العصفوران أن طارا بعد أن هزا الغصن بقوة فأسقطا منه ليمونة كبيرة صفراء ، وكان سقوطها على دماغ القطة السوداء على بيضاء . ولعل هذا هو السبب في أنني أفضل الجلوس تحت تمارا عن تحت زهيرة ، فما أظنني أكون سعيداً بليمونة كبيرة في كوب الشاي الخرف البني . وكانت القطة قبل ذلك نائمة على النجيلة الخضراء تستمتع مثلي بدفء القروش الفضية المتراقصة ، ثم تنبهت على صوت العصفورين فرفعت رأسها وصوبت نحوهما عينين خضراوين ناعستين ، واختلجت شفتاهما مع شاربها كما يحدث دائماً في مثل هذا الظرف ، مع نونة خافتة مرتعشة هي التجسيد المرير لشوقها اليائس إلى هذا البروتين الطائر .

وناظرا إلى هذين الفكين المرتعدين كدت أسمعها تقول :
 - يارب ! خلقت لنا العصافير لكي نأكلها ونسبح بحمدك ، فلماذا
 يارب - لماذا ! - خلقت لها أجنحة تهرب بها منا ؟ ؟

وكانت تلك هي اللحظة التي سقطت فيها الليمونة الصفراء على
 دماغها السوداء ، وربما كان ذلك عقوبة لها على اعتراضها على إرادة
 الخالق . فهبت مذعورة تتلفت حولها مستكشفة سر ما حدث ، ومدى
 لحظة ركزت بصرها علي أنا - بصفتي الشخص الوحيد الموجود - بنظرة
 اتهام خضراء . ثم انها ما لبثت أن نسيت كل شيء عن الأمر فباعدت
 بين فكها كالكهف وتناثرت . وطبعاً كان اسمها في البداية بوسي مثل
 كل القطط المصرية من الطبقة الوسطى ، لكن صاحبها حمادة شرع
 فجأة يناديها باسم موني ، ويوماً بعد يوم صارت تستجيب لهذا الاسم
 الجديد . وبسؤال عن السبب في هذا التغير قال بتلك اللثغة التي لازمته
 إلى ما بعد سن الخامسة !

- هي قالت لي ان اثمها كده !
 والحكاية كلها بالطبع أنه قد اختار لها اسماً خالياً من حرف السين
 لكي يسهل عليه نطقه .

مدت موني رأسها تتشمم الهواء ، إذ سبقني كالمعتاد إلى التقاط
 تلك الرائحة الشهية التي بدأت تعطر جو الحديقة ، رائحة تقليبة تصنع
 في المطبخ . والتقليبة تصحبها الملوخية ، والملوخية قلما تتواجد بغير فراخ
 أو أرانب في أضعف الإيمان ، سلسلة من الاستنتاجات لا أزعج انها
 قد مرت بهذا الوضوح في تلك الدماغ السوداء ، وان كنت لا أستبعد
 ذلك من قطة عمرها عشرون عاماً بعمرنا نحن البشر ، أي أكثر من
 مائة عام بما يناسب عمر القطط .

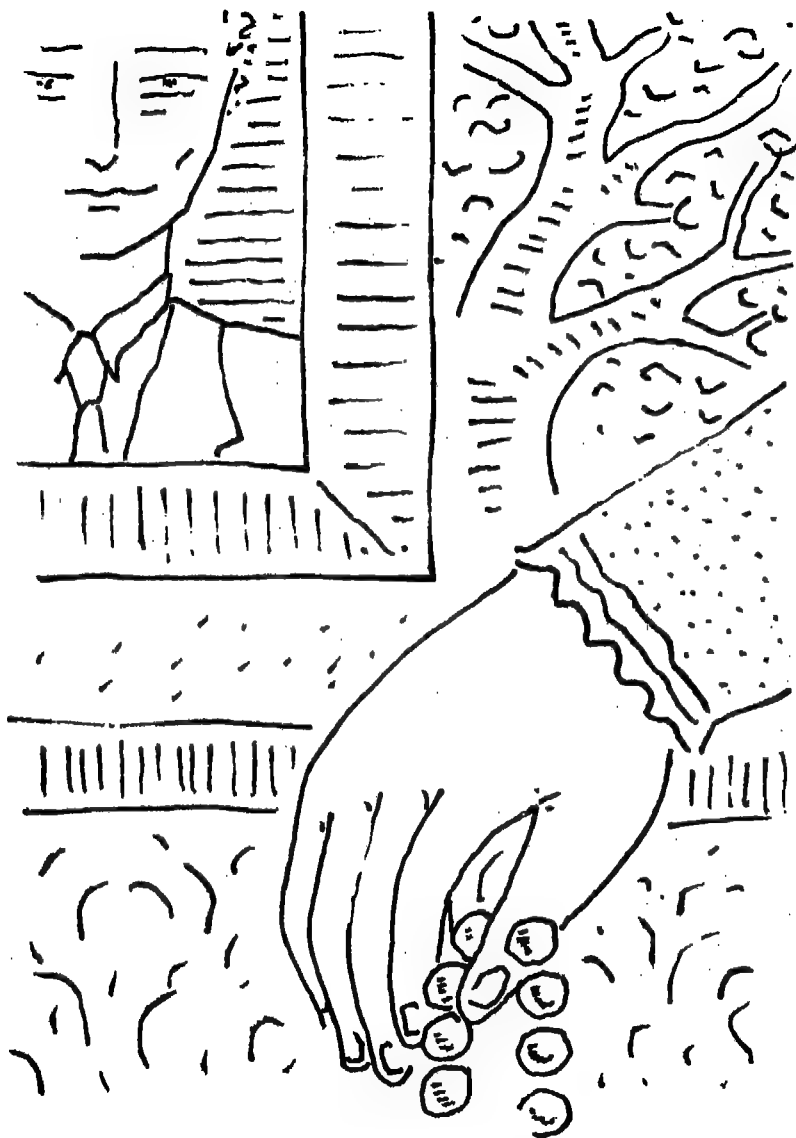
الرائحة وفدت من باب الشرفة المفتوح ، بعد أن مرت بالصالة
آتية من الطرقة الصغيرة المؤدية إلى المطبخ ، حيث أتخيل أمانة واقفة
في فستانها الرمادي وسط سحابة كثيفة بيضاء من بخار الحلال . وإزاء
تلك الرائحة نسيت موني كل شيء عن الشمس وأسرت متواثبة نحو
الشرفة في نشاط مفاجئ .

وصوت خرفشة تحت السور النبائي عرفت مصدره من قبل أن أنظر
إليه ، وقبل أن أواجه العينين السوداوين الجاحظتين للكائن الذي وقف
يرمقني في تساؤل ، الضفدع الكبير - أو الضفدعة الذي يأتي بين حين
وآخر والذي سمحت لنفسه - على عكس الحال مع الفراشة البيضاء -
بأن افترض أنه ضفدع بذاته لا يتغير .
- آووو !

كلمة واحدة موجزة بقولها لي كلما مر من هنا ، ثم يقفز قفزة
تدخل به من خلال السور إلى الشونة وراء السور النبائي . ضفدوع كما
أسميته إذا كان ذكراً ، فإذا كان أنثى فعليه أن يضيف لنفسه تاء التأنيث .
واندفع من حوض البانسيه جسم صغير أبيض ، للفراشة التي
شبت من الرحيق فطارت . ولطالما تساءلت هل تشبع الفراشة بهذه
السرعة لأن بطنها صغير مثلها ، أم أنها - لخبث في طبعها - ترفض
أن تنال وجبتها الكاملة من زهرة واحدة ، مفضلة أن تملأ بطنها من
عشرين زهرة في عشرين حديقة ؟ ؟

وتذكرت كوب الشاي فمددت نحوه يداً تعودت على منظر عروقها
النافرة ، محاولاً أن أتجاهل ما بدأ يشوبها من رعدة خفيفة في العهد
الأخير . ولذلك رحبت بانكسار اذن الكوب الخزف البني ، لكي
أقبض عليه بجماع يدي بدلاً من أن أمسكه باصبعين أو ثلاث فتزداد

الرعدة وضوحاً . وكان الشاي لذيذاً حقاً بتلك النكهة الاضافية من نور
الضحى ، حيث حسوت منه على مهل على الكرسي القش الأصفر العتيق .



الفصل الثاني

« هل يحتاج جمعة إلى حجاب ؟ - طائر مهاجر في مطابخ لندن -
ساقية صدئة اسمها شحاتة - فيدو أو صوت سيده ، الكلب النجس
المنبوذ » .

أمينة وحمادة وفيدو

قروش الضوء الراقصة تحت تمارا ما زالت كافية لحصولي على حاجتي من الدفاء ، هنا حيث أجلس على الكرسي القش العتيق الأصفر . وأمامي تحت زهيرة كرسي آخر أخضر من نفس الطقم العتيق ، هو المفضل عند أمينة حين تنزل إلى الحديقة ، لأن لونه الأخضر كما تقول من لون الجنة .

في الشرفة برزت أمينة من داخل البيت في فستانها الرمادي ، تتدلى من يدها سبحة طويلة ذات حبات صغيرة سوداء . ما كانت لتقنع بسبحة أقل من مائة حبة ، أما السبحة ذات الثلاثين حبة فهي تتركها للهواة الذين لم يكتمل إيمانهم .

وكانت قبل ذلك لا تخلع الثوب الأسود حتى أقنعتها على مر الأيام بأن اللون الرمادي لا يقل بلاغة في التعبير عن الحزن وبأسلوب أوفر . وعلى رأسها طرحة الحجاب البيضاء لتخفي شعرها عن عيون الرجال ، مع أن شعرها يوشك أن يصبح أكثر من الطرحة بياضاً !

فقلت لها ذات يوم متهمكاً :

- هي الجنية فيها رجالة يا أمينة؟

فقلت بغیظ :

- هو جمعة موش راجل ؟

فخطر لي أن أقول لها :

- إذا كنتي اتقي ست يبقى هو راجل !

لكنني لم أفعل طبعاً ، فليس كل ما يخطر للمرء يقوله لاسيما إذا كان صحيحاً .

متناقلة سارت أمينة في الشرفة ، متمائلة لكي توزع على ساقها أوجاع الروماتزم بالعدل . نزلت السلم الأربع المؤدية إلى الحديقة وعبرت الممشى الرملي الصغير ، قتلت بالضرورة ما قتلت من طابور النمل الشغال هناك طول الوقت .

آخذ في الامتلاء جسم أمينة حتى لتوشك أن تصبح سيدة بدينة ، غزال زمان الرشيقي الأسمر ، الذي في أعماق عيونه العسلية ترقص لمسة للذئبة من خضرة متبربة . أمونة الحلوة ، أموتي ، وكم من الأسماء دللتها بها أيام زواجنا الأولى .

على الكرسي القش الأخضر أراحت جسمها قائلة :
- الروماتيزم النهار ده عامل عمايله معايا .

نبرة خشنة طرأت على صوتها بعد أن أكملت الستين فلم تحاول أن تداريها . سرحت حيناً ثم فتحت موضوعها المفضل قائلة :
- حمادة اتأخر المرة دي في الجوابات .

- هي الناس في أمريكا فاضية تكتب جوابات ؟
- يكتب ولو سطرين يطمني عليه . انت قلت لي البلد اللي هو فيها دي اسمها أيه ؟

لا يمكنها أبداً أن تحفظ كلمة ماساشوستس .

- جتهم البلا ف أسامهم ! ده اسم حد يسميه لبلد ؟ وهو راخر يستاهل اللي يجري له ! قاعد معانا واكل شارب معزز مكرم ، لازم يشحطط

نفسه ف آخر الدنيا ؟ ويا ريته بفايدة ، إلا لغاية النهاردة على فيض
الكريم .

– اصبري عليه شوية ، بكرة يشم نفسه .

كان طبيعياً أن يتضاعف تعلقها بحمادة بعد أن حدث ما حدث ،
وفي سبيل تثبيطه عن الهجرة استخدمت كافة الأساليب بما في ذلك
المرض . لكنها كانت تنفخ في قربة مقطوعة ، إذ قرر الولد أن يهج
وانتهى الأمر ، وقبل أن يقفز عبر الأطلنطي غرباً كتب إلينا من لندن
يقول إنه يكسب عيشه مؤقتاً من غسل الصحون في المطاعم ، فكادت
أمينة تقع من طولها .

– يا ندامتي ! حمادة ابني يغسل الصحون ؟ ده عمره ما مد ايده في
الحوض . ده كان يعمل القهوة وأنا اللي اغسل له الكنكة !

فطمأنتها إلى أنهم في تلك البلاد يستخدمون الآلة في غسل الصحون
بدلاً من اليد البشرية ، فلا مناسبة لأن تتخيل ولدها وقد أمسك بليفة
بريطانية وراح يدعك بها صحناً نجساً بما يحمل من آثار شحم الخنزير .
فأراحها هذا الكلام نوعاً ، وان ظلت فكرة غسل الصحون في ذاتها
إهانة عظيمة لا تدري كيف قبلها على نفسه شاب محترم هو ولدها
ويحمل بكالوريوس التجارة بدرجة جيد .

وصوت مبوح نادانا من وراء السور النبائي ، صوت جمعة خفير
الشونة الذي يتولى ري حديقتنا وكنسها .

– صباح الخير يا بيه ، صباح الخير يا حاجة . عندي النهاردة جرجير
حلو قوي !

– هات لنا حزميتين .

– حاضر يا حاجة .

- وفجل كمان .

- حاضر يا بيه .

- وشوف لنا كام بيضة عندك .

وكانما سمعنا الدجاجة المختصة فشرعت تردد نقيق الفرخة التي تريد أن تبيض . ومن آخر الشونة يترامى إلينا ذلك الأنين الأبدي الخافت ، بكاء شحاتة ابن جمعة ، أشبه شيء بصرير ساقية عتيقة صدئة .

نهضت أمينة واختفت وراء البيت ، وعند باب الحديقة الحديدي الواطي ظهر جمعة بعد حين ، تائهاً بجسمه المترهل في جلبابه الأبيض الفضفاض الذي يتسع لاثنتين معه . وشارب أسود كثيف يتصدر وجهه الأسمر الكروي ، أفرغني أول الأمر حتى أدركت أنه شيء من النوع الذي يركبونه الممثلين في الأدوار الهزلية . وبجانبه يسير كلبه المضحك بظهره النبي الغامق منجرد الشعر وبطنه الصفراء الغامقة ، ويسميه مع ذلك فيدو تيمناً بكلاب الناس الطيبين .

دفع جمعة الباب ودخل وأراد فيدو أن يتبعه فمنعه .

- ارجع يا فيدو ارجع ما تزعلش منا الحاجة !

لأن الكلب كان ممنوعاً من دخول حديقتنا بأمر أمينة ، لا لأنه قد أخطأ في حقنا بصورة ما وإنما لمجرد أنه كلب ، تلك التهمة التي تجعل منه - مثل كافة كلاب الدنيا - كائنات نجساً يجب علينا أن ننبهه ونتحاشاه ونزجره كلما رأيناه .

فخطر لي مرة أن أسألها :

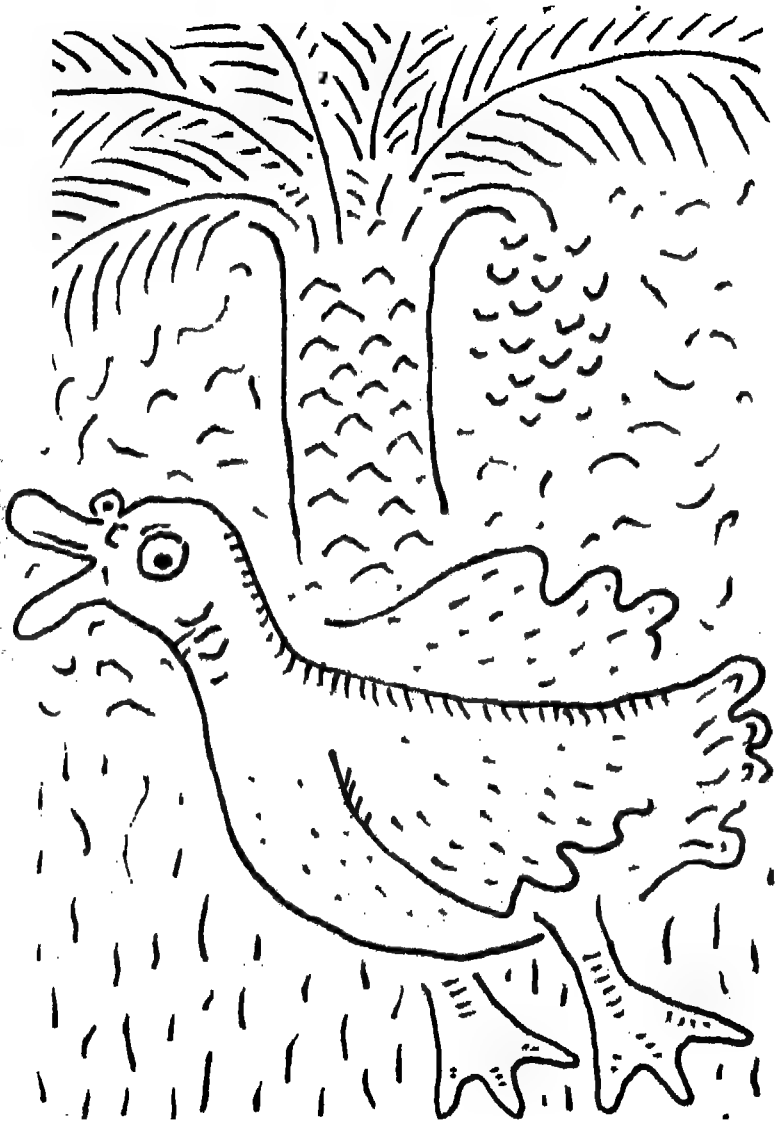
- وكان ربنا يخلقه ليه ؟

فقلت بحزم :

— وكان يخلق العقربة ليه ؟

فلم أجادلها ، وحرمتنا من أن يكون لنا كلبنا الخاص الذي يحرسنا من المخدوعين من اللصوص . ونبح الكلب احتجاجاً على منعه من الدخول ، وكان في صوته بحة مثل صوت جمعة ، فهل كان غريباً مني أن أسميه صوت سيده ؟ لكنه ظل في الخارج بالرغم من الباب المفتوح ، على الرصيف ارتدى ورفع ساقه ليعضعض في بطنه الصفراء متصبداً ما يصادفه من حشرة القراد . مزيج عملي من النظافة والغذاء .

إني أحب جمعة لسبب غير واضح لي تماماً ، وفي الوقت نفسه أرثي له ، ويدهشني أنه يأخذ نفسه مأخذ الجد فيعمل لكي يتزوج ويخلف ويجلس بالليل ليشرب الجوزة ويشرع في إنجاب طفل جديد . وأشياء كثيرة تعلمت ان أحبها وأرثي لها ، حيث أجلس على الكرسي القش العتيق الأصفر .



الفصل الثالث

« الخضرء بدون أن تكون خضرء - مجمع للعصافير وأسرة جمعة -
إسطوانة مشروخة تتأوه - لماذا تكلم جمعة عن البطة الجريحة بضمير
المذكر ؟ » .

رينا والنخلة و ذكر البط

حتى قروش تمارا الدافئة لا تلزمني في هذا الصباح الذي يوشك أن يكون صيفاً . فالشتاء لا يزال يتلكأ لسبب غير مفهوم ، وهي قطعاً أكلة خاصة يجهزها لنا على مهله في مطبخه غير المبارك . فجلست في الشرفة على الكرسي القش الأحمر ، ثالث كراسي الطقم العتيق ، وذلك بعد أن جمعت ما كان يعلوه كالمعتاد من زهور الياسمين .

بارك الله فيك يا حمادة أينما كنت ، إذ جذب إلى الداخل بعض فروع من ياسمينه ، وبشيء من الخيوط والمسامير صنع لنا في الشرفة مشروع خميلة ياسمين صغيرة مبهجة . وياسمينه الأم تواصل رحلتها الأبدية الدؤوب نحو سطح البيت ، عشرات من الزهور البيضاء تلمع فوق خضرتها وترمقني بنظرات أميل إلى الظن بأنها متعاطفة .

وهنا في الشرفة أرى صديقتي الرابعة شبه كاملة ، وراء السور النباتي الذي لا يحجب شيئاً منها سوى أسفل جذعها الطويل . فهي صديقتي بدون أن تكون شجرتي ، ومتى كانت الملكية من شروط الصداقة ؟ هي نابتة في الشونة التي نسيتها هازلين بأرض عم جمعة ، إذ يتولى حراسة ما فيها من أكياس الأسمنت وأسياخ الحديد المملوكة للمقاول صاحب الأرض .

طويلة رشيقة مهندمة على الدوام ، خضراء بدون أن تكون خضراء .

لمسة من البني المحروق تمازج خضرتها الهادئة وتجعلها غير ذات لون مؤكد . فهي أحياناً برتقالية على خضراء ، وهي أحياناً صفراء ، وهي أحياناً طوبية متوهجة توشك أن تكون حمراء . وفي حبها للتفرد رفضت أن يكون لها أوراق مثل سائر الشجر ، معتمدة في تنفسها على تلك الغصينات الصغيرة التي تتدلى من أغصانها مثلما تتدلى الشراشيب من كم فستان أخضر على بنت رشيقة مثلها .

لكن أمانة لا تحبها ولا تنكر ذلك .

– موش فاهمة ايه عاجبك فيها ، لا بتطرح ولا بتزهر ولا منها فايذة ولا عابدة .

فهي في علاقتها بالنبات تؤمن بمذهب المنفعة ، ولذلك كان تفضيلها للنخلة القائمة هناك في آخر الشونة ، الكالحة المائلة بزواية حادة تجعل حياتها مقاومة مستمرة للسقوط . لكنها تثمر وتطعم جمعة وأسرته ، من السباطة اليتيمة الحمراء التي تطرحها كل صيف . وهذا إلى جانب علاقاتها التاريخية العديدة بالأنبياء والقديسين .

فقلت لأمانة وأنا أشير إلى صديقتي :

– عارفة دي بقى اسمها إيه ؟

قالت متصاهرة :

– إيه. يا سيدي ؟

– اسمها رينا .

فقالت ساخرة :

– اشمعنى ؟

– شجرة كزورينا ، ح اقول لها يا إيه إلا يا رينا ؟ ؟

فضحكت أمانة ضحكة صغيرة ، وكانت تضحك كثيراً قبل

أن يحدث ما حدث ، وقالت :

- ربنا يكملك بعقلك !

وفي آخر الشونة بالقرب من النخلة يقوم ذلك البناء الحجري الأصفر ، وعشرات من الشقوق في جدرانه حولتها العصافير إلى عشرات من الأعشاش . هناك يخزنون أكياس الأسمنت وأسياخ الحديد وأسرة عم جمعة ، ومن هناك ينبعث ذلك الأنين الصدى الذي لا ينقطع نهائياً أو ليلاً .

وعن أم شحاتة لا أعرف شيئاً إلا صوتها البدائي الجلف الذي يلعلع في الشونة كلما تشاحت مع زوجها جمعة . ومن حسن حظي أنني لا أفهم شيئاً مما تقول ، إذ تنهال الكلمات من فمها أشبه بأكداس الزلط حين تنسكب على الأرض دفعة واحدة من قلاب على ظهر لوري . وقد كان في البداية يبكي مثلما يبكي سائر الأطفال ، صراخات متشنجة تتفجر حيناً ثم تهدأ عندما يزول سببها . ثم تبين أن هذا السبب لا يزول عند شحاتة أبداً ، ومع الجهد والتعب تحول البكاء إلى أنين خافت مستمر مثل خرفشة اسطوانة مشروخة علققت إلى الأبد على كلمة آه . ربما كان الجوع على صدر تلك الأنثى العجفاء ، وربما كان المغص أو الإسهال أو قرص الناموس . وهو صوت ألفته ولم يعد يزعجني ، ولربما افتقدته وأزعجني سكوته إذا سكت .

- ما توديه لدكتور يا جمعة ؟

هكذا اقترحت عليه يوماً فقال :

- هو دكتور واحد يا بيه ؟ دنا لفيت به مستشفيات البلد كلها . صلي ع النبي يا بيه .

وأشار نحو البيت الحجري المشقق وقال :

- كله م الولية دي ! بطنها بعيد عنك زفرة ، عمر ما نزل منها عيل
سليم !

وعلمت أمينة من بائعة اللبن أنه قد مات الجمعة حتى اليوم طفلان ،
ولذلك سمي هذا الأخير شحاتة عسى أن يخزي عنه عيون الحاسدين
فيعيش .

- يا ست ! يا مودام ! يا حاجة !
صوت جمعة عند باب الحديقة الذي لا أراه من هنا ، وأجابه
صوت أمينة من عند باب المطبخ .

- أدخل يا جمعة ، عاوز حاجة ؟
ولم أسمع رده عليها إذ قرر كلبه أن ينبع معه في نفس اللحظة .
قالت أمينة :
- هاته أشوفه .

وقال جمعة :
- امشي يا فيدو ، امشي !

وصوت جدل بينهما عند باب المطبخ لم أميز منه شيئاً ، صوت
جمعة المبحوح يحاول أن يرتفع . فيغلب عليه صوت أمينة ويكبسه .
ثم سكنا ومرت دقيقة قبل أن يظهر أمامي في الممشى الرملي ذلك الكائن
الغريب .

هي بطة عادية سوداء مثل كل البط ما في ذلك شك ، ومع ذلك
ساورني للفور إحساس قوي بأن فيها شيئاً غير طبيعي . واحتجت إلى
لحظات قبل أن اكتشف طبيعة ذلك الشيء ، متمثلة في ذلك السرسوب
الطويل من الدم الأحمر القاني ، الذي يقطر من عتق البطة ويرسم تحتها
على الرمل الأصفر خطأً طويلاً متعرجاً أحمر . بطة عندها نزيف ، تفسير

غير معقول . وهى تسير خطوتين وتسقط من فرط ضعفها ، فتنهض
ثانياً متحاملة على نفسها ، غير مدركة أنها تخطو آخر خطواتها في
الحياة . ورأت على الأرض شيئاً أعجبها فالتقطته بمنقارها ورفعته إلى
أعلى لتبتله غارقاً في دماثها .

وظهر جمعة مقبلاً في الممشى فما كاد يرى البطة حتى صاح فرحاً :

- لقيته يا ست !

فعمجت لماذا يتكلم عن البطة بضمير المذكر حتى قال :

- ده ذكر بط كت الست موصياني عليه !

وانقض عليه فالتقطه ممسكاً إياه من ساقيه ورأسه يتدلى نحو الأرض ،
والسرسوب الأحمر قد تحول إلى سيل غزير من الدماء .

قلت له مستفسراً :

- هي مدبوحة ؟

فقال مصححاً :

- أيوه يا بيه ، مدبوح .

- أنت اللي دابحه ؟

- أمال يا بيه .

- طب مش تدبحه زي الناس ؟ ده لف الجنية كلها على رجله !

فقال متباهياً :

- أحسن يا بيه ، عشان دمه يتصفى كويس !

وابتعد بالقتيل وهو يقول :

- ألف هنا وشفا يا بيه !

فتمنيت من قلبي أن أخلع الحذاء وأقصد إليه فأضربه ، لكنها

بالطبع ظلت مجرد أمينة . فما ذنب جمعة فيما فعل ، وهل أتى شيئاً غير
ما رأى قومه يفعلون ؟

أما عني أنا فلا أظن أنني سأضع في فمي قطعة واحدة من هذا الذكر
التعس ، اللهم الا إذا اعترتني حالة مؤسفة من ضعف الذاكرة ، وما
أكثر ما تعتريني تلك الحالات في العهد الأخير .

ودخلت أمينة إلى الشرفة وهي تجفف يدها بفوطة وتقول في انتصار :

— دكر بط يسوي اتنين جنينه ، خدته منه بجنيه بس !

فتفكرت في الأمر لحظة ثم قلت :

— أحسن ، عشان دمه يتصفى كويس !

فقلت أمينة غير فاهمة :

— يعني إيه ؟

فقلت في ايجاز حاسم :

— نكتة غير موفقة .



الفصل الرابع

« هل يتنافى الحزن مع الزهور ؟ - نوع خاص من الحب - فضيحة
بين البساتين - لست أحسن من الفراشة البيضاء - وفرح الولد المفقود » .

فضيحة في عالم الحداثق

- ما تزرع الجنيئة دي يا بيه بدل ما هي قرعة كدة ؟
هكذا قال لي جمعة يوماً وهو حديث عهد بالعمل في حديقتنا ،
فقلت له متهرباً :
— ما هي مزروعة آهه .
— ده سجر يا بيه . أنا قصدي نزرعها ورد وزهورات وحاجات فرايحي
كده ، لجل ما تضحك كده وتبقى حلوة .
لم يخطر له أن هذا بالذات هو السر وراء تلك الحديقة العابسة ،
أن أمينة لا تريد لها أن تضحك أو تكون حلوة ، وكيف يجوز لها أن
تفعل بعد أن حدث ما حدث ؟
قلت لجمعة مداعباً :
— ما تزرع الزهورات دي عندك أنت ؟
— احنا بتوع زهورات يا بيه ؟ كفاية علينا حبة الفجل والجرجير . أجييب
الفاس وآجي بكرة ؟
— لا يا جمعة ، قدام شوية .
وغامرت بعرض الفكرة على أمينة في إحدى لحظاتها الصافية ،
مؤكداً لها أن هذا الإصرار على الحزن وعلى تحريم ما أحل الله من

مباهج الحياة الصغيرة ما هو الا رفض خفي لإرادة الله واعتراض صامت على مشيئته .

- وعلى كل حال اعرضي الحكاية على دار الأفتا .

الشيخة مفيدة صاحبة الدرس الديني الأسبوعي الذي تحضره أمينة منذ سنوات ، بارك الله فيها من شيخة متفتحة العقل واسعة الأفق ، وافقتني تماماً على رأيي في حزن أمينة الأبدي ، وإن كانت قد خالفني قبل ذلك في مسألة الكلب صوت سيده فكتبت عليه النجاسة الأبدية . ابتسامة جمعة وصلت إلى أذنيه حين صرحت له بأن يزرع الحديقة ، مشروطاً عليه أن يفعل ذلك في أضيق حدود ممكنة . وكان من الممتع أن أرقب جمعة وهو يعمل في الحديقة ، الأرض يعزقها بالفأس ليكشف للشمس أحشاءها السوداء الظامئة للضوء . أو بالشقرف يداعبها في رفق كأنه يخشى أن يجرحها ، ويده التي تغوص في التربة المبتلة السوداء كأنما تغوص في عجينة سقيت لبناً وعسلاً .

إنه يحب الأرض من قلب فلاح أصيل سخطه الزمن خفيراً لشكاثر الأسمنت . أنا شخصياً قد أمشي على الأرض عمراً كاملاً دون أن أحبا بهذه الصورة ، وقد أبني عليها قصراً أو هرمًا أو أخفر لنفسي فيها قبراً ، وشيء من ذلك لن يجعلني أحبا ذلك النوع من الحب .

وكانت بالطبع فضيحة بجلاجل في دنيا فلاحة البساتين ، تلك الحديقة التي زرعها جمعة بمقاييس أولئك الذين يستعملون كلمات مثل التبوليب والجلادبولس وغيرها من الزهور ذات الأصل الكريم . حوض من زهور البانسيه ذات المائة لون ، حيث يقف القرد الوقح بجانب الأرنب المذعور ، بجانب البنت الخارجة لتوها من عند الكوافير ، وغير ذلك من الأشكال الجديدة التي يكتشفها الإنسان كل يوم إذا

كان من هواة ذلك . وحوض آخر يحوي تشكيلة فاقعة الألوان من درجات الأحمر ، أشبه شيء بفساتين البنات الذاهبات إلى حديقة الحيوان صباح يوم العيد .

غير أن هذا لم يكن ليزعجني ، وكيف يزعج رجلاً يعتبر نفسه من غلاة المؤمنين بالاشتراكية النباتية ؟ إن كل الزهور جميلة في نظري طالما أدخلت البهجة على نفسي ، أما الأصل الكريم فلتركه لمن يحتاج إليه . وكيف لا أحب هذا القرد وهذا الأرنب ، والرجل الصيني الأصفر ذا الشارب الأسود الطويل الذي اكتشفت وجوده منذ أيام ؟ إن الفراشة الصغيرة البيضاء تحب هذه الزهور وتهافت عليها ، فمن أنا حتى أدعي أنني أفهم في الزهور أكثر من الفراشة الصغيرة البيضاء ؟ قال لي جمعة وهو يشير مزهواً إلى ما صنعت يدها :

- شايف يا بيه ؟ بالذمة موش بقت شربات ؟

- بأنفاسك يا جمعة !

- ازرع لك حوض بقى دايرن داير ؟

- اسأل الست .

وبعد أيام رأيته عاكفاً على عزق الأرض حول محيط النجيلة الخضراء . وقالت أمينة متحاشية أن تنظر إليّ :

- أقول لك حاجة ولا تضحكش ؟

- واضحك لي ؟

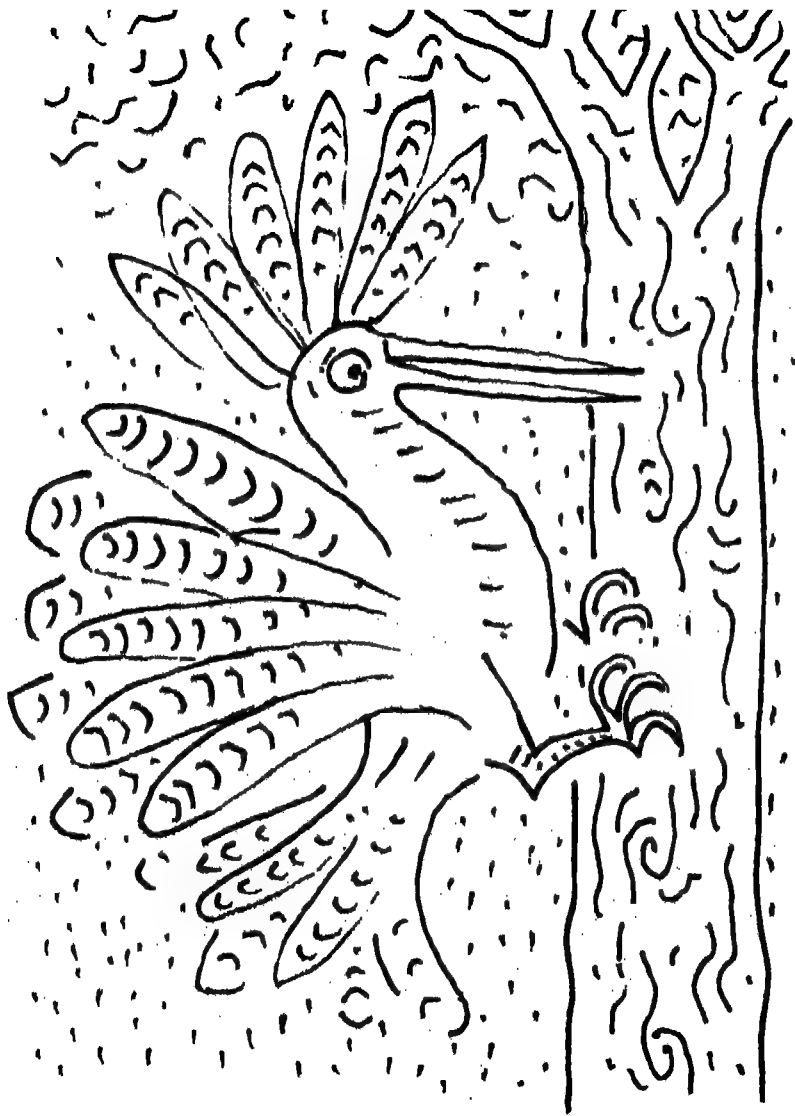
- أنت موش عارف نفسك ؟

- موش ح اضحك .

فقال في خجل :

- محمد جاني في الحلم وقال لي انه فرحان بزرع الجنيينة .

فددت بدني لكي أربت في حنان على ركبتيها العجوز ، هنا حيث
جلست أمامي على الكرسي القش الأخضر الذي بلون الجنة .
وقلت لها مخلصاً :
- ربنا يفرحكو دائماً .
وضغطت برفق على ركبتيها فقالت متوجمة بشبهة دلع قديم :
- أي ، الروماتزم !



الفصل الخامس

« بردان وراء الزجاج المغلق - ربة السحر والأوبيك - لماذا يتخاصم
هدهد وعصفور ؟ - هل هو عصفور فاسق ؟ فضيحة الطائر المبروك -
ربة السحر تنتصر » .

فضيحة الهدد

إذا جاء الشتاء فليس الربيع يبعيد ، كلمة فارغة قالها الشاعر الإنجليزي البردان ليصبر نفسه على بلواه ، إذ هو أجدر الناس بأن يعرف أنه إذا جاء الشتاء فقد جاء ، وأن دونه والربيع شهوراً طويلة من الهم البارد والعذاب المثلج .

ولكم فرحت عندما رأيته يؤجل وصوله بتلك الصورة ، بل وتحملت في لحظة جنون انه ربما يكون قد ألغى حضوره أصلاً ، متأثراً بدعوة حارة من قلبي الطاهر ! لكن الشتاء هو الشتاء ، كلمة باردة يجب أن نسمعها من الزمن كلما حان وقتها المحتوم .

إذ فتحت باب الشرفة ذات صباح فكأنني فتحت عن ثلاثة كونية كبرى تهدد بالتجمد كل ما تلامسه . فأقفلته بسرعة وحييت الصديقات بالإشارة من وراء الزجاج ، ما من واحدة منهن ردت عليّ السلام . عابسات كلهن كالحات يحملن هموم الدنيا بأسرها . وبنظرة إلى السماء عرفت السبب ، السماء الرمادية الكثيرة المنطرة بيوم شتوي مشثوم . ومع ذلك فالهواء ساكن تماماً ، ما من ورقة واحدة تهتز في غصن واحد من آلاف الأغصان الجامدة في الأشجار حولي . الهدوء المثلج المريب ، كأنها لحظات العد التنازلي قبل انفجار المصيبة التي أعدتها لنا السماء . في بلاهة جلست موني أمام المدفأة ، مندمسة لماذا لا تشعر بالدفء

كما هو مفروض ، ومتخيلة أنها لو أطالت الحلقة في المدفأة فقد تشعلها بقوة سحرها الخفي ، هي الإلهة باسيت روح إيزيس ربة السحر . فهي لا تعرف أن الجاز قد أصبح وقوداً عزيزاً ، وأن العقلاء من الناس قد كفوا عن إشعال المدافئ صباحاً . وتلك بالطبع كلمة لا تعني عندها شيئاً على الإطلاق ، كلمة أوبك .

الفائزة الحقيقية اليوم هي أمينة ، بوقفها الممتعة أمام شعلات البوتاجاز الساخنة وما فوقها من حلال تشكشك وتملأ الجو بخاراً دافئاً شهياً . وأنه ليكفيني أن أستمع من بعيد إلى ذلك الصوت المطرب لكي امتلئ دفتاً ، صوت الكبشة وهي تتخبط على جوانب حلة ساخنة .

فوقفت وراء الزجاج المغلق أفرك كفي وأنفخ فيهما وألعن أسلاف الشتاء . وشيء هبط فجأة أمامي على سور الشرفة ، شيء حي تغطيه ألوان مزركشة بدرجات من البني والبيج الغامق . على رأسه تاج فخور أحمر ، وأمامه على سبيل المنقار سيف طويل مدبب . هدهد جميل علموني منذ صباي أن أحبه وأتفاهل به وأتمنى شيئاً من البركات التي تتناثر من جناحيه حين يطير .

ففرحت به إذ اختص شرفتي بشرف الهبوط فيها ، وعبت عليه حين بسط جناحيه بسرعة وطار . عبر السور النباتي طار واجتاز الشونة كلها ، حتى وصل إلى البيت الحجري المشقق فحط هناك على سطحه فوق جمعة وأسرته والعصافير .

مدى لحظة شغلت عنه بالتطلع إلى السماء التي بدأت تكتسب ذلك اللون الأسود القبيح ، ثم ردتني إليه تلك الضجة التي انبعثت فجأة من ناحيته ، حيث دوامة كبيرة من العصافير تحلق فوق البناء الحجري في دوائر محمومة وهي تصرخ كلها في وقت واحد . وفي مركز تلك

الدوامة رأيت جسماً متركشاً هو الهدهد ، وكان قد انتقل من سطح البيت الحجري إلى جداره المشقق حيث تعلق بمخالبه بأحد شقوق العصافير وهو يضرب بجناحيه ضربات سريعة لكي يتفادى السقوط ، ومنقاره الطويل المدبب قد غاص في أعماق الشق وراح ينبشه بهدف واضح لا لبس فيه هو أن يدمر ذلك العش تدميراً .

لماذا اختار هذا العش بالذات لا أدري ، ولماذا تقع العداوة بين لهدد وعصفور لا أدري ، فليس بيدي سوى أن أقف عاجزاً أتفرج على ذلك المنظر المأساوي . أشياء كثيرة يخرجها الهدهد من العش وينثرها حوله في الهواء ، ميزت فيها ريشاً للطيور وأوراقاً للشجر وأغصاناً صغيرة . وفي دماغي المحمومة تخيلت داخل العش مجموعة من البيض لم تفقس بعد ، أو أسرة من صغار العصافير ممدودة الأعناق منفرجة المناكير تنتظر ما سوف تدسه فيها أمها حين تعود .

كان واضحاً من حماسة الهدهد أنه يجد في عمله متعة كبيرة ، غامضة الا على جنس الهداهد . أما أنا فساظل إلى الأبد جاهلاً إن كان هذا الهدهد قد قرر - في نوبة بشرية طارئة - أن يدمر ذلك العش لمجرد متعة التدمير ، أم أنه يتناول وجبة الإفطار العادية مثلما يفعل كل يوم وأنا لا أدري .

وأخيراً تعب الهدهد أو شبع أو زهق أو لا أدري ماذا ، فضرب بجناحيه ضربة رفعته فوق سطح البناء الحجري . هناك وقف يتلفت حوله في خيلاء ، تاجه يرقص فوق رأسه في زهو الظافرين ، وسيفه ممدود أمامه يقول هل من مبارز ؟ والعصافير ما زالت في دواستها المجنونة حوله ، خائفة من أن يكون الوحش في فترة من الراحة قبل أن ينقض على عش جديد .

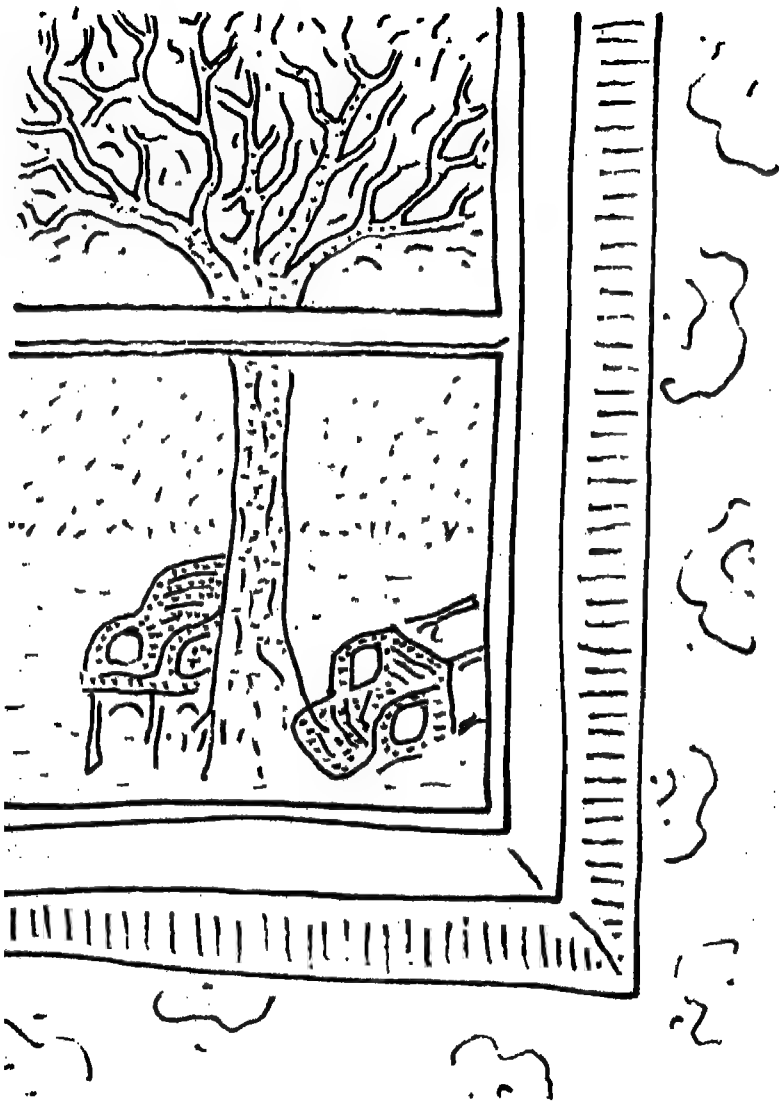
وفجأة قصف الرعد بشدة ، مرة ثم مرتين ثم ثلاث مرات ، وسيف
لمع في السماء واخترق السحب الكثيفة السوداء ، فانفتحت السماء عن
الدش الكوني المرتقب الذي راح يغرق كل شيء . رينا وزهيرة وتمارا
والكرسي القش الأصفر العتيق ، والآخِر الأخضر الذي بلون الجنة .
والقروذ الضاحكة والأطفال المذعورة وفساتين البنات الحمراء والبمبي ،
والحمد لله أن الفراشة البيضاء كانت أعقل من أن تخرج في مثل هذا
الجو .

وعن السطح الحجري طار الهدهد مذعوراً تتناثر البركات من
جناحيه مبتلة نوعاً . والعصافير عادت مسرعة إلى أعشاشها ، أسفت
لأنه ليس لها أبواب لتحتمي وراءها من شرور الحياة .

فيا ليت السماء بكرت قليلاً بهذا المطر ، إذن لربما أمكنها أن تنقذ
ذلك العش التعس من التدمير . ومع ذلك من يدري ، أليس من الممكن
أن يكون صاحب ذلك العش عصفوراً فاسقاً منحلاً يستحق ما حل به
من العقاب ليكون عبرة لمن يعتبر من بني عصفور ؟

وأدركت بعد فوات الأوان كيف فاتني أن أنادي أمينة لتشهد فضيحة
ذلك الهدهد السفاح ، لعلمي بأنها سوف تكذبني عندما تسمع القصة
مني . ستقول أن جريمة كهذه لا يمكن أن يرتكبها ذلك الطائر المبروك
صديق سيدنا سليمان ، وأني أنا الذي بدأت أتوهم أشياء لا حقيقة لها
من طول معاشرتي للشجر والحيوان على الكرسي الأصفر العتيق .

وسيل من المطر بدأ يضرب الزجاج بشدة حتى أوشك أن يحجب
الرؤية تماماً ، فكرهت المنظر كله وابتعدت نحو المدفأة حيث ما زالت
موني صابرة تنتظر . نعم إن العقلاء لا يوقدون المدافئ صباحاً ، لكن
من هو ذلك اللوح الذي يريد أن يحشرنني بالعافية في زمرة العقلاء ؟



الفصل السادس

على البساط النبتي العتيق - الثلج أفل الأواب - وجاء من أقصى
سيناء - الولد والفحمة سوداء - حب وسط العاصفة » .

بجانب المدفأة

العاصفة تزمجر في الخارج في الظلام المثلج ، غاضبة معربة وسط الكائنات الخضراء الوديدة الصامدة . عواء للريح لا ينقطع ، وصرير أليم للأجزاء الطرية من جذوع الشجر ، وفي ليلة كهذه قد تنكسر أية شجرة وتهوي دون أن يشعر بها أحد ، حتى الطويلة الرشيفة التي أشك في أنها ما زالت مهندمة . والدش الكوني ما برح مفتوحاً منذ ساعات ، كأن أحداً قد فتحه ليستحم ونسي أن يقفله .

فجلست في الصلاة على يمين المدفأة المشتعلة ، على الفتوي اللبني الذي كان ذات يوم أزرق ، وقدماي على ما تبقى من وبر في البساط النبتي العتيق . وأمينة على مقعد مماثل عن يسار المدفأة . تتلاقى أصابعنا الباحثة عن الدفء أمام فتحاتها حيث العهد الساخن الذي فيه شفاء لأصابعنا العجوز المتجمدة . له حق أن يكذبنا من نقول له أننا كنا في ذات يوم نستنبط الدفء بالجهود الذاتية من جوف هذين الجسدين . وفجأة قفز إلى حجري جسم أسود على أبيض ، موئي التي كانت نائمة تحلم عند قدمي . حجري أحسن لأنه أقرب إلى فتحات المدفأة الساخنة ، والروب الصوف الرمادي يشع دفئاً إضافياً تحتها ، فتكورت هناك وبدأت تقرأ . - كرررررر !

قراءات غامضة تؤكد أمينة أنها ذات طابع ديني ، وهذا ليس

شيئاً مستغرباً من آلهة سابقة . فوضعت يدي على ظهرها أمسح بها على
قطيفته السوداء ، ومددت أصبعاً أتحمس به ذبذبات القراءة أسفل عنقها
الأبيض الذي تمدد في استمتاع .

- كررررر !

ارتفع صوتها بالقراءة فسمعتة أمينة وتصبعت .

- يا كبدي يا بني ! شوف إحنا قاعدين دفيانين إزاي ، وهو يا ضنايا
موش عارف يفتح الباب من كتر الثلج !
معلومة كتبها لها حمادة في رسالته الأخيرة ، وأشعر أن شيئاً هاماً
ينقصها لكي تدخل في الدماغ . واسترسلت أمينة وهي تلتقط بكرة من
صوف التريكو الأزرق :

- آديني ح اعمل له بلوفر حلو يدفيه !

- هي قلة بلوفرات في أمريكا ؟

- شغل ايد الأم يدفيه أكثر !

- حسرة ع اليتامى اللي زينا !

وفجأة سطعت الفكرة في دماغها فقلت لها :

- عمرك شقي باب يفتح لبرة ؟

فقال غير فاهمة !

- يعني أيه ؟

- يعني أما بتيجي تفتحي باب ، بتشديه لجوة ولا تزقيه لبرة ؟

فتفكرت لحظة ثم قالت :

- باشده لجوة !

فقلت لها في انتصار وأنا أطرق باصبعين :

- يبقى لازم الثلج في أمريكا دخل جوة البيوت !

فيبدو أنها كانت قد فكرت في الأمر بمفردها ولحسابها الخاص ،
بدليل أنها قالت بسرعة شديدة .

- لازم أبوابهم كده !

- تفتح لبرة ؟

- آه ، اللي يسمي بلده ماساكوفتش يعمل ابوابها تفتح لبرة !

فأحببت منظر الغيظ الكاذب على وجهها القمحي الذي بدأت
تغزوه التجاعيد ، ولمسة الخضرة القديمة ما زالت تتلاعب في عينيها
وإن فقدت بريقها القديم . وما كان أحد ليلوم أمينة أو يطالبها بأن تظل
هي أمينة القديمة بعد ذلك الذي حدث . فلو أنهم قالوا لها إنه قد
استشهد لكان ذلك أرحم بها من تلك الكلمة الجافة المقتضبة الباردة :
مفقود . قالوها وسكتوا ، عملوا ما عليهم وانصرفوا . ما من أحد شرح
لها كيف تحول ولدها الأكبر من موجود إلى مفقود ، كيف تاه وليس
بين أولاد الحلال من يرشد إليه . فكانت أسابيع مريرة في المستشفى ،
وفي عالم غير عالمنا تعيش أمينة . فلعلها وجدت هناك ولدها التائه
وخشيت أن تتركه فيتوه منها ثانياً . في عالم وحدها عاشت أمينة أسبوعاً
وراء أسبوع ، عالم طالما تاه زواره إلى الأبد في دروبه الملتوية الباردة . وجاء
من أقصى سيناء رجل يجري ، فك ما تبقى من أضرار الجاكطة الكاكي
وارتمى قائلاً وهو يلهث :

- ماحنا نصنا مفقودين يا بيه ، حد عارف حد من حد ؟ دي القبلة
من دول تنزل ع اللوري باللي فيه تخليهم فحمة سودة !

فحمة سوداء ولدي ، صورة أفرعتني لزم طويل إلى درجة الازدلال ،
والحمد لله أنها لم تصل إلى أذني أمينة في عالمها الآخر . لكنها كانت

أرحم عندي بكثير من صورة جثة ملقاة في العراء والوحوش تنهش لحمها في الوادي المقدس .

وعادت أمينة بعد زمن إلى عالمنا ، لكنها لم تكن - وما كانت يمكن أن تكون - نفس أمينة التي ذهبت . أشياء منها بقيت هناك ولم تعد ، وأشياء عادت بلون مختلف ، مثل شعرها الذي كان أسود فصار أبيض ، وشيئاً فشيئاً بدأت تتعلم الابتسام من جديد .

ومن فوق بكرة الصوف الزرقاء أتاني صوتها يقول :

- مش عارفة كان يجري لي آيه لو حمادة راخر جرى له حاجة . .

سؤال سمعته منها أكثر من مرة بعد أن هاجر حمادة ، تطرحه بأخشن نبرة من نبرات صوتها . ولحسن الحظ أنني لم أكن مضطراً إلى الإجابة ، لأن السؤال كان على الدوام موجهاً منها إلى نفسها . من أعماقها تتساءل ولا تنتظر أن تسمع الجواب ، وإذا كانت هي قد أجابت نفسها فلست أدري ماذا قالت .

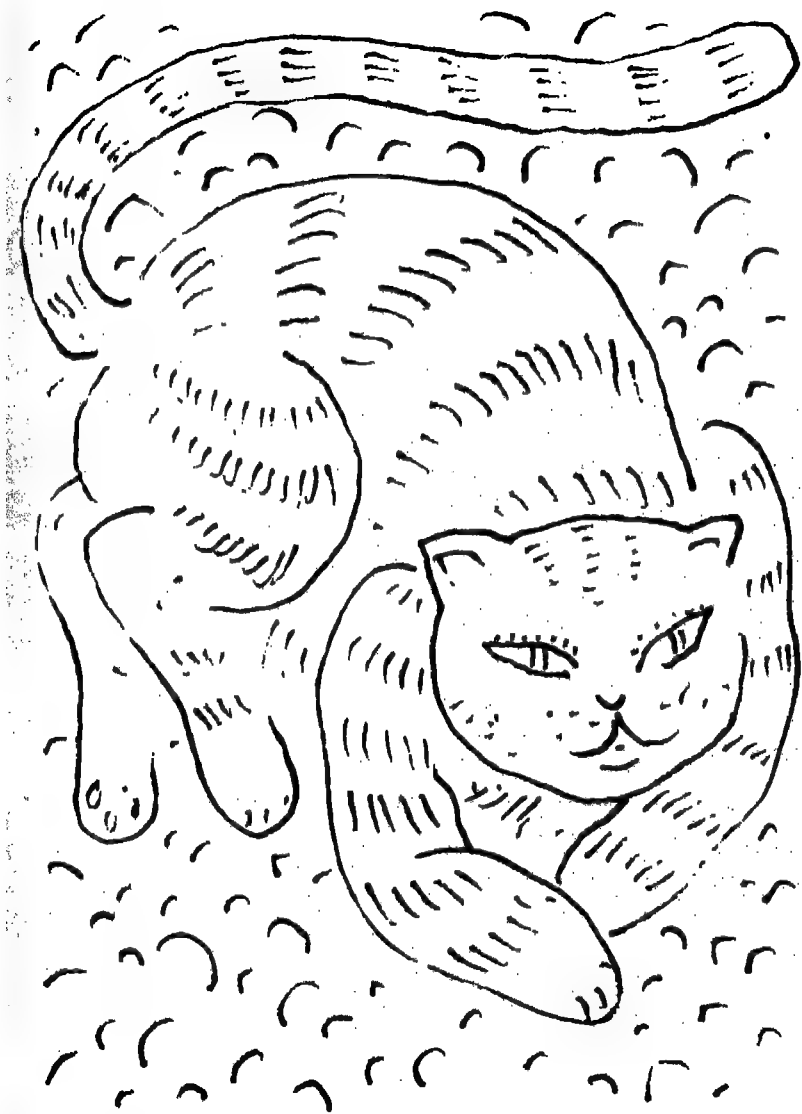
من فوق خيوط التريكو تأملتُها بحب ورتاء وهي لا تراني ، ثم ملت نحوها قائلاً : - أحبك يا أمونة .

فاختلست نحوي نظرة مستغربة ثم ابتسمت وقالت :

- حبتك العافية !

عواصف كثيرة هبت على حياتنا فقاومناها ، وحرائق كثيرة شبت فأطفأناها ، ثم حدث الذي حدث فجرف أمامه كل شيء .

كم يزعجني ذلك الصرير الأليم في جذوع الشجر أمام العاصفة المجنونة . وليمون كثير لا بد أنه قد سقط قبل الأوان من غصون زهيرة ، والأرض غمرتها الأوحال حول الكرسي الأصفر العتيق ، وفي الأوحال



الفصل السابع

« الكرسي عاوز مسمار - وطلعت الشمس على إيزيس - موني
تسهم في بناء الهرم - الالهة التي سقطت - إنقاذ في آخر لحظة » .

موني

سجن داخل البيت لمدة يومين ، من وراء الزجاج أرى تمارا وزهيرة
تقاومان العاصفة بنفس البطولة ، والنجيلة تحتهما مغطاة بأوراقهما الساقطة ،
التي حولت الكرسي القش الأصفر إلى أخضر مثل صاحبه الآخر بلون
الجنة . فأترك باب الشرفة وأذهب لأتھالك بجانب المدفأة على الكرسي
اللبنّي الذي كان أزرق ؛ ورائحة المطبخ تغمر الصالة كثيفة مركزة تكاد
تصل بالإنسان إلى حد الشبع . وأحياناً تدخل أمينة فتجلس صامتة
لتشتغل سطرّاً في البلوفر الأزرق ، وأذنها مرهفة إلى المطبخ في انتظار
صوت لحظة تشكشك فتترك الخيوط وتقوم مسرعة .

فالحمد لله أنها غضبة قصيرة الأمد ، غضبة الشتاء المصري على
أبناء وادي النيل . مثل غضبة أب عصبي على أولاده ، صياح وخبط
وشخط ونظر ، وصفعة هنا وبونية هناك ، ثم لا يلبث الجو أن يروق
ويصفو ، وعلى الأرض الخضراء تسطع دافئة كعهدھا شمس السلام .
هكذا وجدتني مرة أخرى حرّاً طليقاً في الحديقة ، أنظف الكرسي
الأصفر العتيق الذي غسلته المياه فصار أكثر إصفراً . ومن تحت
تمارا جذبتھ ووضعتھ في الشمس الصريحة العارية ، الساخنة المقدسة
التي تذيب في العروق اليابسة ما تجمد خلال هذين اليومين . وشكراً
لجمعة الذي نظف النجيلة مما عليها من الأوراق الذابلة الموحلة ، ورش

عليها بعض الرمل لكي تجف الأرض بسرعة .

وهذا الكرسي محتاج إلى الإصلاح السريع وإلا فسوف أندم ،
عندما تنكسر ساقه الخلفية فجأة فأجذني مستلقياً به على النجيلة الخضراء
التي لا تزال مبتلة . فأرجو إذا سقطت أن لا تكون أمانة موجودة ولا
جمعة ولا حتى موئي ، أما الأشجار فلا بأس بالسقوط أمامها لأنها
لا تضحك ، أو على الأقل تعرف كيف تداري ضحكها .

وموئي هي الأخرى سعيدة بالشمس التي طلعت بعد غياب ، تروح
وتجيء هنا وهناك في نشاط طاريء . بل إنها ألصقت بطنها بالأرض
مرة وقفزت لتتعلق بجذع زهيرة ، هاربة على سبيل التسلية من خطر
لا وجود له .

على النجيلة الخضراء سارت حتى وصلت إلى رقعة من الأرض
خفت حشائشها ، فجلست فيها وراحت تنظر إليّ باهتمام كأنها تراني
للمرة الأولى . على مؤخرتها جلست ولت حولها ذيلها الأسود ، مرفوعة
الرأس خضراء العينين تتأملني . وذراعاه قائمان أمامها مثل عمودين
من الجرانيت الأسود على باب معبد قديم ، صدرها وحده هو الأبيض
وجزء من بطنها وكان المعبد مضاء من الداخل .

وقورة جادة متكبرة ، مستعدة لتلقي فروض العبادة في أي وقت
يختاره العباد . خوfo العظيم نفسه أوشك أن يفلس وسط فراغة المقاولين
بناء الهرم ، فقال له الكهنة أن أحداً لن ينقلده من ورطته إلا الآلهة القطة
باسيت المعبودة شرق الدلتا بالقرب من زقازيق اليوم . فأمر خوfo بمعبد
كبير يقام لها هناك ، وفيه تقدم أطايب القرابين من فتران سمينية
وعصافير . وحيث أن خوfo قد أقبل من عثرته وأكمل بناء الهرم ،
أفليس من الممكن أن تكون الخبيثة باسيت باطنة السر حقاً ؟

هي تنظر في عيني بقوة ، من الأعماق القاسية لعيونها الخضراء .
الشر واضح هناك لا يمكنها أن تداريه ، حاقدة فيما يبدو عل أهل هذا
الزمن الذين حولوها من آلهة تقدم لها القرابين إلى حيوان يلقي إليه
بالفتات . نظراتها تتكلم وأوشك أن أسمع صوتها يقول لي :

- اسمع يا أنت ! لا مانع من التظاهر فنحن لن نخسر شيئاً ، لكنك
تعلم جيداً أنني أكرهك ! نعم أنا أتمسح في ساقك في بعض الأحيان
مظهرة حي ، فإذا نمت على حجرك قرأت لك بعض القراءات أعرف
أنك تحبها لكن هذه كلها أشياء من متطلبات المهنة ليس إلا . فأنت
وقومك قد غرستم في نفسي طبيعة الملق والنفاق ، بعد أن قضيتم آلاف
السنين تتولون أنتم تملقي ونفاقي . وأنا الآلهة باسيت روح إيزيس ربة
السحر لا أنسى بسهولة ، وسوف أسترّد ذات يوم مجدي المفقود وحيثند
سوف تعرفون معنى الثأر حين يكون !

بمثل هذه الكلمات المسمومة لا بد أنها ألقت الرعب في قلوب
أجدادي المرفهة فعبدوها ليتقوا شرها ، الكلمات التي تتدفق مثل حمم
البركان من أعماق عيونها الشريرة الخضراء .

ومن خلفها أقبل قط غريب يتسحب ، ولا بد أنه واحد من أحفاد
أحفادها الذين يملثون الحثة كلها . قط باهت الخضرة مستطيل الجسم
مطوط كأنه فردة شراب حشاها العيال قطناً . شيئاً فشيئاً يقترب منها
حتى صارت رأسه لصق مؤخرتها فانتبهت فجأة على أنفاسه الساخنة ،
وبسرعة البرق استدارت نحوه ولطشته قلماً يهد نيراً مخططاً أو فهذا
أرقط ، فانطلق يجري بغير نظام ولا وقار مثلما يحدث في بعض الأحيان
في دنيا البشر ، في لحظة عفة زائدة عند أنثى شرسة في أوتوبيس مزدحم .
وابتعدت موني نحو الشرفة في هيئة تأفف ، قرفانة من هذا المجتمع

الذي لا يتيح للأنثى العفيفة لحظة تنامها وهي آمنة على شرفها .
 وأسفل السور النباتي سمعت خرفشة مألوفة ، ونظرت لأواجه العينين
 السوداوين الجاحظتين لضفدوع الذي قال لي متسائلاً :

- آووو !

فتلفت حولي قبل أن أجيبه قائلاً على سبيل المجاملة كي لا أكسفه :

- آووو !

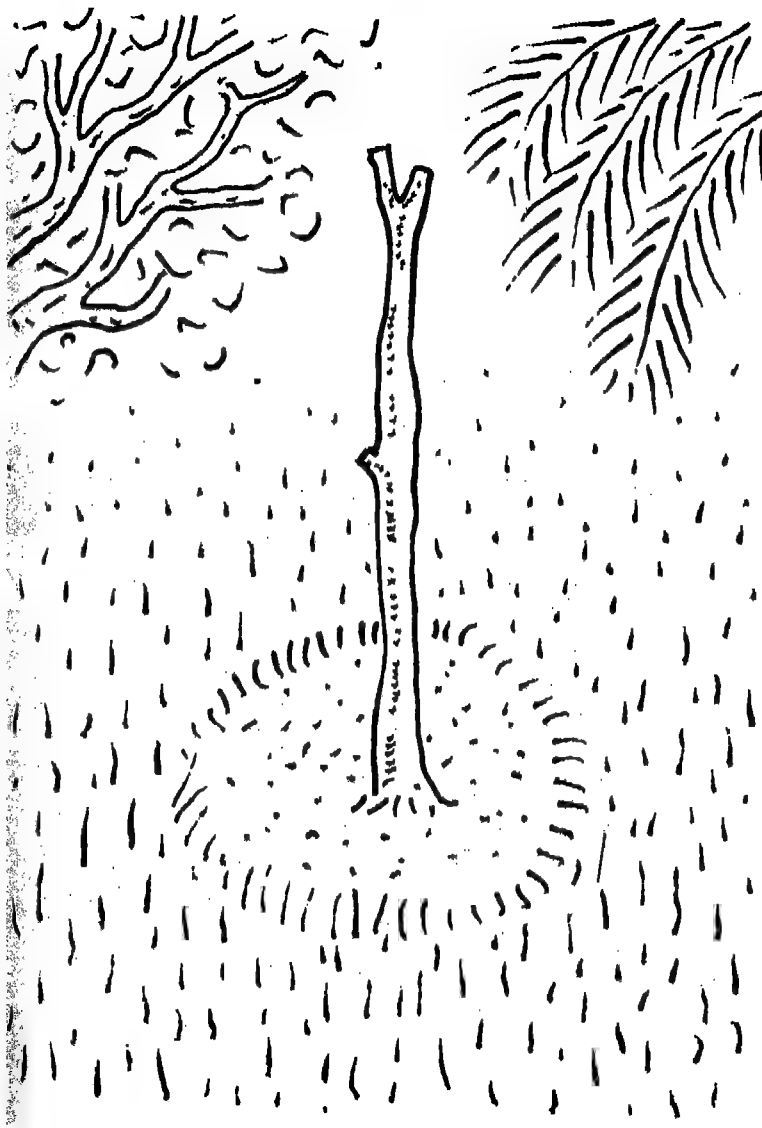
فبدا عليه أو عليها الرضاء ، وقفز قفزة أدخلته إلى الشونة . وتذكرت
 ما قرأت من أن الضفادع قد صارت من الأكلات المفضلة في مطاعم
 أوروبا الراقية ، أي أنها أكلة خاصة بالصفوة من الناس . وقد عرفت
 من واحداً يعرف واحداً من تلك الصفوة أن طعمها مزيج من طعم
 السمك والأرانب ، وهو شيء غير مستغرب من كائن برمائي يجمع
 بين طبائع سكان الماء وسكان اليابسة . واقشعر بدني وأنا أتخيل نفسي
 أمصمص الفخذ الرشيق الذي يقفز تلك القفزات اللطيفة لذلك الكائن
 الحبوب .

والحمام الشمسي الساخن المقدس قد زاد من قداسه أكثر مما يلزمي ،
 أذاب ما تجمد في العروق وأوشك أن يذيب العروق نفسها ، فخير لي
 أن أنتقل تحت قروش تمارا الرفيقة المتراقصة . وهناك تحت تمارا رفعت
 ذراعي ومددت ساقي لأتمطى ، فإذا بي أفاجأ بنفسي وأنا أميل إلى الخلف
 وأشرع في رحلة مؤكدة نحو الأرض ، حيث جلست على الكرسي القش
 العتيق الأصفر ، فما أنقذني من مصيري الأليم الا جذع صديقتي تمارا ،
 الذي وضع نفسه في اللحظة المناسبة في متناول يدي لكي أتعلق به وأنجو
 من تلك السقطة المهينة على أرض الوطن .

فجلست حيناً ألهث وأستعيد هدوء نفسي وقد زال الخطر ، تم

التفت نحو تمارا بكل الحب المتوقع وقلت لها :
- مرسي يا روحي ، أَلف شكر . موش عارف أرد جمائلك دي
إزاي ؟

وأحطت جذعها العزيز بذراعي وطبعت عليه قبلة امتنان .
تلفت حولي لكي أطمئن إلى أن أحداً لا يراني ، عالماً أنه من النادر
يوجد بين الكائنات من يدرك المعنى الحقيقي لشعور الإمتنان .
وبالإضافة إلى ذلك خطرت لي فكرة الملاك الحارس الذي يجب
من بعيد لبعيد ، ويسهر على مصالحي ويرعاني ويلهمني بين حين وآخر
بفكرة قد تبدو في وقتها غير ذات قيمة وهي في الحقيقة ذات نفع كبير
نعم إن الشمس كانت حامية حقاً ، وأنني كنت سأنتقل من نفسي
حيث أحتمي بأغصان تمارا ، لكن ما الذي جعلني أنقل الكرسي الأصفر
إلى هذه النقطة بالذات ، النقطة الملاصقة لجذع صديقتي حيث يمكنني
أن أتشبث به عند اللزوم ؟ لو أنني لم أفعل ذلك كيف كان الحال يكرو
وأنا ساقط على النجيلة كالجرذل بالكرسي الأصفر العتيق ؟



الفصل الشّامِن

« من أين جاءت الشجرة الغريبة التي عندها كلام ؟ » .

الشجرة الغريبة

في ركن من أركان المشى الجانبي وأنا أتمشى فوجئت بها أمامي ،
تلك الشجرة الغريبة التي لا أذكر أنني رأيته هناك من قبل . ولا جمعة
طالبني بتمنيتها كعادته كلما أحضر شيئاً ولو كان عوداً يابساً ، ولا علمت
من أمينة أنه طالبها .

شجرة بارتفاع صدري تقريباً ، ذات جذع رفيع وأوراق كبيرة
مفلطحة تتناقض بشدة مع حجمها الممدود ، ولذلك لا يحمل الغصن
الواحد أكثر من ورقتين أو ثلاث ورقات . والأوراق نفسها ذات ألوان
غريبة متمردة على كل ما أعرف عن النبات من حب للنظام والسمتية .
هذه ورقة زيتية غامقة وتلك فاقعة الخضرة فردقي ، وثالثة مقسومة بجرأة
غريبة إلى نصفين طوليين أحدهما أخضر عادي والآخر برتقالي صارخ
بلون العجور ! وأخرى ذات لون بمبي مسخن ، وفي أسفلها علامات
غريبة باللون الأخضر تشبه شخطة الرسام بفرشاته على باليتة الألوان .

فقلت لجمعة لما رأيته :

- ايه الشجرة دي يا جمعة ؟

- دي اسمها أكاليفا يا بيه !

- أكاليفا ؟

- أكاليفا .

- يعني ايه ؟
- معرفش يا بيه ، هم في المشتل بيقلولوها كده !
- أنت اللي جايها ؟
- في الحقيقة لا يا بيه !
- آمال جت منين ؟
- لازم كان فيه عقلة قديمة مستخينة تحت الأرض وطلعت مع العزيق .
- دي بكرة تكبر وتبقى شربات !
- فلست أدري كيف سأعود نفسي على هذا الأسم الغريب أكاليفا ،
- حتى بعد اختصاره الحتمي إلى ليفا . كما لن أهضم فكرة أنها كانت
- مدفونة تحت الأرض وطلعت لوحدها ، فكرة لا تملأ الدماغ تماماً .
- لكنني مضطر في الوقت نفسه - ما دام جمعة قد رأى مثلها في المشتل -
- إلى استبعاد تلك الفكرة المثيرة عن كونها شجرة من الفضاء الخارجي
- وصلت إلينا في نيزك صغير لم يلتفت إليه أحد . وناظرأ إلى النقوش الخضراء
- على الورقة البسي عرائني شعور غريب بأن هذه الشجرة تريد بلغة ما لا
- نعرفها أن تقول لنا شيئاً . نعم ، ليفا تكفيها على سبيل الأسم ، اللهم
- إلا إذا كنت مطالباً - ما دمت أكتب ملاحظاتي باللغة العربية - بأن
- أواصل أصول التعريب إلى النهاية فأسميها أقاليفا .



الفصل التاسع

« كلب عنده عشم - رسالة من الحبيب - لماذا هذه الدوخة -
تذكرة عبر العالم - الولد الجاهل بصيغة المثني » .

فيدو يتشمس رسالة حمادة والدوخة

السلام الأربعة المؤدية من الشرفة إلى الحديقة ، أليس مضحكاً أنني بدأت أحمل هم نزولها وطلوعها ؟ فلو أن الروماتيزم مرض معد لقلت أنه قد انتقل من ركبة أمينة إلى ركبتي . فإذا ما انتهيت من نزول السلام فيجب عليّ أن أرفع قدمي إلى أعلى وأخطو بها أوسع خطواتي ، كي لا أدوس على طابور النمل الشغال هناك طول الوقت . وهما في الحقيقة طابوران لا طابور واحد ، أحدهما يسعى من سلم الشرفة إلى المحيط الحجري الواسع للنجيلة ، والآخر عكس ذلك تماماً . في الطريق تتقابل النملتان فتتبادلان ما يشبه القبلية الخاطفة ثم تواصلان مشوارهما الأبدي في صمت . لا أعرف ماذا ينقلون ولا فيما يضيعون وقتهم طول اليوم .

فما كدت أستقر على الكرسي القش الأصفر حتى رأيت في آخر الحديقة منظرأً بدا لي غريباً نوعاً ، وإن كان في الحقيقة ليس غريباً على الإطلاق ، فما وجه الغرابة في كلب نائم يتشمس ؟ لكنه نائم في حديقتي ، فألى متى يظل هذا الغبي جاهلاً بأنه محرم عليه أن يحمل نجاسته إلى أرض حديقتي الطاهرة ؟

هو كان يراني من قبل أن أراه ومع ذلك لم يتحرك ، كل ما فعله حيث رقد ممدود العنق على الحشائش ، هو أن رفع نحوي عيناً سوداء

بنة بالعشم وهز ذيله عدة مرات . فهل عرف الوغد أن لي فيه رأياً مختلفاً
ن رأي أمينة ، وأنه ليس مضطراً إذا رأي أن ينهض مدعوراً وبأخذ
وجهه كالمجنون ؟

وفي عينيه السوداوين الدليلتين سمعت صوتاً متوسلاً يقول :
وحياتك يا بيه سيبي أشمس هنا حبيتين . أنا عارف ان عندنا شمس
الشونة لكن أنا نفسي ف شمسكم ، خصوصاً وسيادتك قاعد معايا
ده زي ما نكون عيلة واحدة . وعلى فكرة يا بيه ، الست خرجت من
ريه !

فن أنا حتى أرفض كل هذه التوسلات وأقضي على هذا الكائن
مس بالحرمان من متعة شمس ومجلس ؟

والله يا صوت سيده - هكذا قلت له في عقلي ، إني لأتمنى أن
بض لكي أحضر لك شيئاً تأكله من المطبخ ، لكنك طبعاً تعرف
اعب الرحلة . طابور النمل الذي يجب أن أتخطاه ثم السلام الأربع ،
البحث في المطبخ عن حلة فيها شيء يناسبك وعن كبشة لزوم الغرف ،
عاء قديم يمكن أن يوضع أمام كائن نجس مثلك . ثم السلام مرة
نرى وطابور النمل ، وأنت تعرف ما قد بدأ عمك يعانيه من آلام
وماتيزم .

فخيل إلي أنني رأيت في عينه نظرة فهم وامتنان ودعاء لي بأن يظل
ي عامراً أبداً ، وأنه لا يطمع في شيء مني سوى متعة الشمس والمجالسة .
وعند باب الحديقة ظهرت أمينة يتدلى من يدها كيس من الورق
سوي البقالة التي خرجت لشراؤها ، فانتبه الكلب على صرير الباب
ب مدعوراً يجري ، قاصداً إلى الثغرة التي تسلل منها في السور النباتي .

فلم تبصر أمينة شيئاً منه سوى مؤخرته قبل أن يخفني ، ومع ذلك
صاحت به زاجرة :

- إمشي جك وجع في بطنك !
ثم لي أنا :

-- وسيادتك مضايغه معاك هنا ولا إيه ؟

فلم أجبها ، وكانت قد وضعت الكيس على الأرض وانحنى
تدعس فيه على شيء ما .

- البوسطجي قابلني في السكة واداه لي ، هو راح فين ؟

وأخيراً وجدت المظروف الذي تبحث عنه فالتقطته واعتدلت به
واقفة بسرعة ، فما كادت تفعل حتى رأيتها تترنح وتتاوه وتسرع بجلب
الكرسي الأخضر الذي جلست عليه ، رافعة كلتا يديها لتضغط بهما
على جانبي رأسها وهي تعض على شفتها السفلى .

- مالك يا أمينة ؟

فلم تجب من فورها ، كماداتها عندما تشعر بشيء يؤلمها ، كأنما
لتزيد السائل قلقاً عليها . وأخيراً قالت بلهجة تأكيد :

- إذا فضلت كده ح اجيب الدكتور فتحي .

وسكتت من جديد فقلت في إلحاح :

- موش أفهم مالك ؟

- بقى لي كام يوم كل ما أوطي في الأرض أعمل حاجة وآجي قايمة
مرة واحدة أحس بدوخة ، وشواكيش تدق في دماغي .

وانتظرت دقيقة حتى هدأت حالها ثم بدأت تفض المظروف الذي
في يدها لتخرج منها رسالة عادية بخط حمادة ، وورقة حمراء غريبة
بخط المطبعة ، فقلبت تلك الورقة حيناً بين يديها ثم دفعتها نحوي قائلة :

- شوف دي تطلع ايه .

وطلعت تذكرة طائرة صالحة لرحلة إلى لوس أنجيلوس ذهاباً وإياباً . وفي الرسالة المرفقة تفسير لها من حمادة يقول .. « وهذه تذكرة إلى لوس أنجيلوس أخذتها بسعر رمزي من شركة الطيران التي التحقت بها أخيراً ، فيا حبذا لو حضر بها أحد منكم ليتفرج على أمريكا ، والإقامة على حسابي طبعاً » .

فحمادة إذن ما زال حمادة ، ذلك الجاهل الأزلي يعلم النحو ، الذي يخاطب والديه مستخدماً ضمير الجمع في منكم بدلاً من ضمير المثني في منكما . وخبر آخر في الرسالة أسعدنا بشدة وهو أن الولد قد ترك ماساشوستس إلى كاليفورنيا حيث الشمس الساطعة والنسيم العليل ، وحيث استقر في وظيفة طيبة بإحدى شركات الطيران . وأخيراً ستستطيع أمينة إذا سألها أحدهم أين يقيم ولدها في أمريكا أن تقدم له إجابة صحيحة .



الفصل العاشر

« طفلة عجوز نائمة - اليوم الذي لعب فيه الولد - سر الابتسامة
الممنوعة » .

الولد يلعب

مثل طفلة صغيرة تنام أمينة ، وكل الناس أطفال إذا ناموا . طفلة في الستين من العمر ، فاعرة الفم في تلك البلاهة التي تميز الإنسان إذا انفصل عن عالم الوعي . أرجو أن تكون أحلامها في كاليفورنيا أو حتى في ماساشوستس ، أو أي مكان عدا ذلك الذي من أقصاه جاء الرجل يجري . سمعتها قرب الفجر تفتح الثلاجة وتأكل منها بشرهة كما كانت تفعل زمان عقب الكارثة . وبينما هي عائدة كانت تلهث وتكلم نفسها قائلة .

- يحميك يا حمادة ! يحميك يا حمادة ! يحميك ويخليك يا حمادة !
وهنا عاودت النوم ناسية على غير عادتها أن تطفئ الأباخورة .
وذاات يوم كانت هذه العجوز المسكينة شابة حلوة شهية مليئة برغبة الحياة ، وبالطفل الذي قدر له فيما بعد أن يضيع . على كنبه تمددت منذ سنوات طويلة تقرأ ، وفجأة هتفت تناديني قائلة :

- تعالي قوام ! إجري أمال ! هات إيدك !
وخطفت يدي لتضعها على نقطة من بطنها قائلة في فرح بالغ :
- حاسس بيه ؟ يلعب ! والنبي يلعب !

الجنين الذي انقضى شهر كامل وهي تنتظر منه أية إشارة تثبت وجوده ، فعلاً أحسست به يتفرز ويتلوى تحت يدي ، الكائن الغريب

الذي يتغذى في جوف الظلام على دمائها .

- لازم أقول لماذا !

ووثبت لتطير النبا السعيد إلى جميع الأهل والأحباب . وعلى ضوء الأباجرة التي نسيت أن تطفئها رأيت صورتين للولد الذي ضاع . صورة له وهو طفل يصرخ ويضرب الهواء بذراعيه ، والأخرى لشاب وسيم يغالب ابتسامة تريد أن تفرض نفسها على الصورة . وذات يوم - رحمة بها من قسوة الذكرى المستمرة - عرضت عليها أن ننقل هاتين الصورتين إلى مكان غير حجرة نومنا ، فلمعت عيناها ببريق غريب أفرغني ، وقالت بصوت أجش :

- أنت بتخرف تقول ايه ؟ أنا اشيل صور إبراهيم من جنبي ؟ ده حبيبي أنا ! دول يفضلوا قدام عيني هنا على طول ، لحد ما ربنا يثذن لي وأروح له أنا بنفسي !

وكثيراً ما ضبطتها واقفة أمام الصورتين بلا مناسبة ، أو جالسة على حافة السرير تتأملهما وتتشرب بهما وهي تتمتم بالصلوات ، وبين حين وآخر ترفع يدها لتمسح عن عيناها دمة جفت من زمان . وسعلت أمينة سعلة جافة ومدت يدها لتحسس الأباجرة لتطفئها .



الفصل الحادي عشر

« زاهدة في الضفادع - لا تلدغ الآلهة مرتين » .

موني والضفدعة

لا شك أن المسمار الذي دققته في الساق الخلفية للكرسي القش الأصفر قد عمل عملاً ، لكنه بالطبع ليس غاية المراد من رب العباد . فأرجو أن تكون عزيزتي تمارا وجذعها المتين مستعدين لإنقاذي مرة أخرى من بهدلة السقوط .

بالقرب مني تنام موني آمنة في حماي من المتطفلين ، وخرفشة مفاجئة تحت السور النباتي فرفعت رأسها ونظرت إلى حيث نظرت ورأينا ضفدوع ، فسرعان ما خفضت موني رأسها وعادت النوم ، نادمة على الجهد الذي بذلته في رفع رأسها . وقد يتساءل غير خبراء الحداق عن السبب الذي من أجله تزهد قطعة ذواقة مثل موني في لحم كائن ملظظ كالضفدعة ، وهو لحم يقدمونه كما نسمع في أرقى المطاعم الأوروبية . وذات يوم كانت موني صغيرة قليلة التجربة ، فوقعت أمامي في نفس هذه الغلطة التي يقع فيها غير خبراء الحداق .

خرفشة مماثلة في السور النباتي ما كادت موني الصغيرة تسمعها حتى ألصقت بطنها بالأرض إيداناً بالهجوم ، وهزت مؤخرتها تلك الهزة التقليدية ثم انطلقت كالسهم نحو الهدف ، فما كادت تصل إليه حتى فرملت وتوقفت وبدا لها أنه يحسن بها أن تعيد حساباتها ، فهذا الكائن لم يكن يسير مثل كل الكائنات بل كان يقفز ، ذلك

السلوك الذي تعودت عليه من الجراد والنطاط وغيرها من الكائنات الصغيرة ، أما أن يأتي ذلك السلوك من هذا الكائن الكبير فأمر بدا لها غريباً منه أو على الأقل غير لائق به .

مدت يداً حذرة مستكشفة ضربت بها على ظهر الضفدعة ضربتين خفيفتين ، فلما رأتها لم تفعل شيئاً خففت بيدها على ظهرها لكي تثبتا على الأرض فثبتت ، رغبة في التعاون إلى النهاية مع القطعة الصغيرة العبيطة ، فعمدت موني إلى الاجراء الأخير الحاسم بأن قربت أنفها من ظهرها لكي تشمها مع لحسة صغيرة مستطلعة ، فما كادت تفعل حتى سحبت رأسها بسرعة ووثبت إلى الخلف كأنما تكهربت . بيدها تدعك أنفها بشدة لتمحو عنها شراً علق بها ، مع هز رأسها بقوة لتتخلص من كافة آثار هذا الشر . فلو انها وجدت نفسها في الحمام لما استغربت لو رأيتها تغسل وجهها بالماء والصابون .

وكان هذا حسبها من الضفدعة التي ظلت جامدة في مكانها - ساخرة في أغلب الظن من القطعة العبيطة - حتى تأكدت من انتهاء المناوشة فقفزت قفزتين دخلت بهما إلى الشونة من تحت السور النباتي .

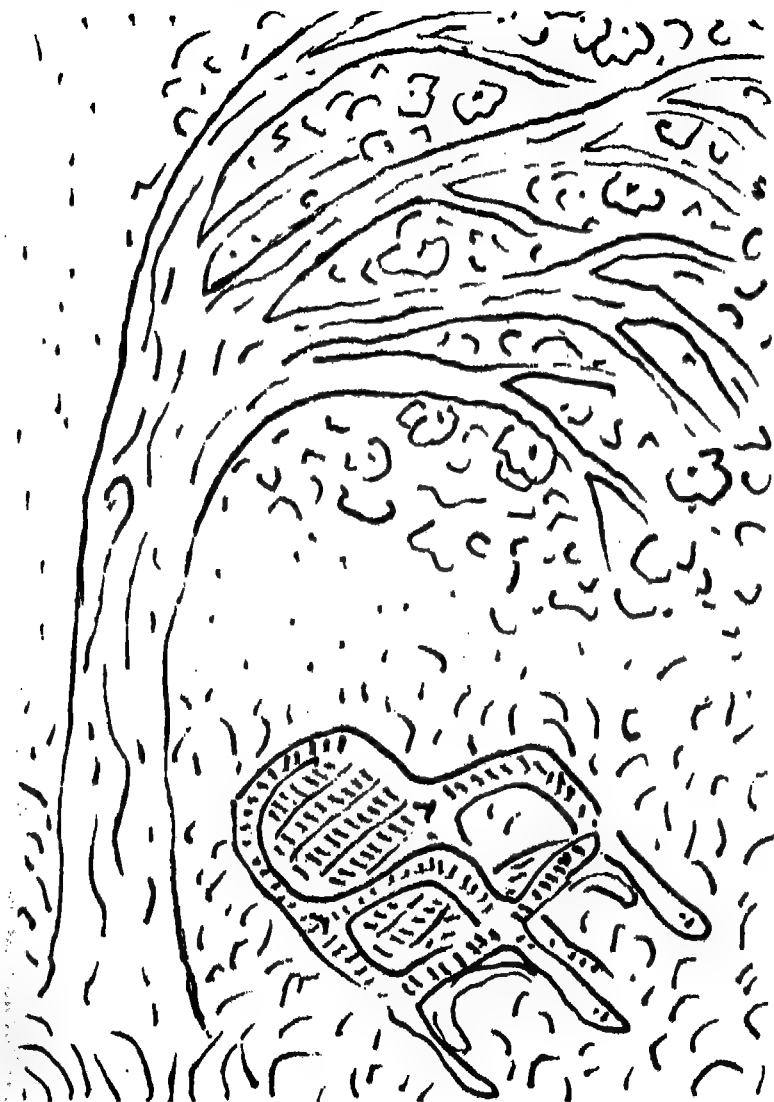
كان درساً مفيداً لموني ولي ، وفي بعض الكتب التي تهتم بالحيوان عرفت سر المسألة ، كيف أن الطبيعة وقد رأت الضفدعة غير مهية للقتال ولا للفرار بهذه الصورة المزرية بالكرامة الحيوانية ، عملت إلى تزويدها بغدة خاصة تفرز عند اللزوم مادة كريهة الرائحة والطعم شبه سامة ، فما يكاد المهاجم الجاهل يتعامل معها حتى يحدث له ما حدث للصغيرة العبيطة موني .

فهذا الضفدوع ليس بريئاً بقدر ما يوحى به منظره الفكاهي ، وليس يوجد بين الكائنات فيما يبدو كائن بريء ، ترى هل الأمر كذلك

مع الفراشة اللطيفة البيضاء ؟ وكان ما زال يتلکأ - ضفدوع - تحت
السور النبائي ، وقفز قفزة ثم قال لي مودعاً :

- آووو !

فتلفت حولي قبل أن أرد عليه السلام ، حيث أجلس على الكرسي .
القش العتيق الأصفر .



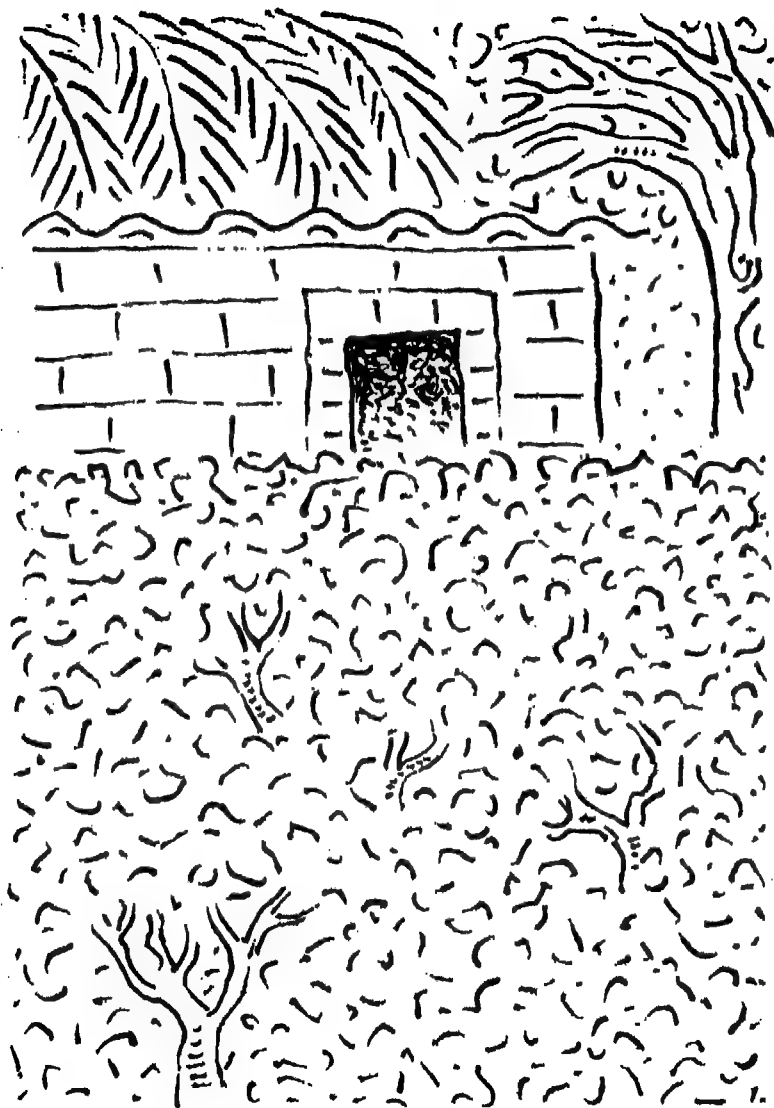
الفصل الثاني عشر

« ملاكي الحارس ، أحبك - منظر مريب على جذع رينا -
اكتشاف موهبة الصراخ - رينا ضد المقطورة - غصن امتنان يخلج » .

- الرجل قبيح المنظر والمخبر تعجمد على الجذع الطويل الرشيق ،
وصوت جمعة أتاني من آخر الشونة يقول بدهشة واضحة :
- أبوه يا بيه ، فيه حاجة يا بيه ؟
 - تعالى هنا حالاً !
- فرأيت الخيمة البيضاء تقترب مهولة وراء السور النبائي ، وأتاني
الصوت المبحوح متسائلاً في براءة .
- أي خدمة يا بيه ؟
- فقلت بصوت بذلت أقصى جهدي لكي لا يكون متهدجاً :
- الرجل ده بيعمل ايه ع الشجرة ؟
 - فقال جمعة ببساطة :
 - ح يقطعها يا بيه !
 - فصرخت به في جنون :
 - يقطعها يعني ايه؟ هي فوضى ؟
 - الحاج زكير هو اللي أمر بكده يا بيه ، عشان المقطورة الجديدة يعني .
- وشرح لي كيف أن المفاول صاحب الأرض قد اشترى للوري
مقطورة جديدة ضخمة ، وكيف أنه حضر بالأمس وحاول أن يدخل
بها إلى الشونة فتعذر عليه ذلك بسبب الشجرة التي تسد الطريق فأمر
باقتلاعها .
- ببساطة كده ؟
 - ده اللي حصل يا بيه .
 - طب ما يوسع باب الشونة ؟
 - توسيع الباب فيه صرف فلوس ، لكن قطع الشجرة ح يجيب فلوس !
 - طب لف وتعالى لي هنا .

- وقبل أن يصل الجمعة كنت قد أعددت في جيب الروب ورقة
بخمسة جنيهات ، وبينما أنا أكلمه كانت يدي تتقبض عليها كأنما
أستمد قوتي منها . قلت له بأكثر ما أتيح لي من هدوء :
- شوف يا جمعة ، بصراحة كده الشجرة دي عزيزة عليّ . يعني زي ما
تقول اتعودت عليها وبقت حتة م الجنية .
فقال وفي صوته المبسوط رنة حزن :
- والله وعزيزة عليّ أنا كمان يا بيه ، غير شي أنا عبد المأمور ؟
- خلاص يا جمعة ، ما تقطعهاش . عشان خاطري أنا يا جمعة .
ولست في صوتي نبرة توسل لم تعجبني ، وقال جمعة في حيرة :
- بس أقول ايه للحاج زكير ؟
- قول له أي حاجة . خد .
ومددت الورقة السحرية نحوه قائلاً :
- راضي الراجل ده بحاجة والباقي لك أنت .
ويبدو أن رائحة الورقة نفاذة أكثر مما قدرت ، إذ صاح الرجل
الذي على الشجرة فجأة يقول :
- اشتغل ولا ما اشتغلشي ما تفهمونا ؟
فقال له جمعة :
- انزل يا عبده وأنا جاي لك آهه .
فراح الرجل ييرطم قائلاً !
- اطلع يا عبده انزل يا عبده ، ربنا يتوب علينا م الشغلانة دي !
ودس جمعة الورقة في أعماق جيبه الفسيح وابتعد متميلاً . فتمنيت
من أعماق قلبي أن أعرف أين يوجد ذلك الملك الحارس لكي أذهب
إليه وأفيه حقه من الشكر وأكافئه أن كان هذا ممكناً .

وعبر السور تبسمت للعزيزة رينا - التي كان يمكن أن تكون في
هذه اللحظة كتلة خشب كبيرة ميتة على أرض الشونة - وأرسلت لها
قبلة على الهواء ، فأبّت غصناً من أغصانها يختلج بغير ما ريح تحركه ،
وهذا في اعتقادي أقصى ما يجب أن يتوقعه رجل عاقل من شجرة
كزورينا على سبيل اظهارها للإمتنان .



الفصل الثالث عشر

« اسطوانة سكنت - امرأة باردة البطن - واجب العزاء لصوت
سيده - لحستان نجستان لا لحسة واحدة » .

موت شحاتة

- يا بختك يا خويا بنومك ! بدمتك ما سمعتش حاجة خالص ؟
هكذا صبحتني أمينة وأنا جالس أشرب الشاي على الفتوي النبي
الذي كان أزرق ، في الكوب الكبير الخزف النبي ، الموضوع على
الترابيزة المستديرة التي لا أذكر لماذا ولا متى طليت بهذا اللون الأسود
الحاسم .

- ده صواتها كان واصل للسما ا
صوت أم شحاتة كما شرحت لي ، حين فوجئت الولية وقت صلاة
الفجر أن ولدها قد كف عن البكاء بغير مناسبة ، ولا هو يتحرك ولا
حتى يتنفس أو يستجيب لضربات اليد ، فرقت بالصوت وجمعت
حولها بعض النسوة من الجيران . ساعة كاملة وهي تبكي وتلطم وتعدد
على الطفل الميت في حجرها ، حتى أقبلت الحرمة المختصة بتفسيه
وإعداده للدفن . وهو ثالث طفل يموت لجمعة كما رددوا من جديد ،
وعن جمعة قيل إنه قال في محاولة لتفسير ذلك :

- مرة بنت كلب بطنها باردة ، كل عيالها تنزل ناقصة سوا ا
فقررت أن لا أنزل إلى الحديقة تحاشياً لجو الشونة الحزين ، وصوت
النائحات اللواتي يتناوبن سرد الحكايات عن عيال ماتوا :
- يا ست هانم يا حاجة ا

صوت جمعة عند باب المطبخ فقصدت أمينة إليه وعادت بعد لحظات قائلة !

- شوف له اتنين جنيه غلبان يدفن بهم الواد .
- فأعطيتها الجنيهين ونهضت متحاملاً لكي أؤدي واجب العزاء البغيض للرجل المنكوب .
- البقية ف حياتك يا جمعة !
- حياتك الباقية يا بيه .
- شد حيلك ، كلنا لها .
- كله على الله يا بيه .

وحيث وقف في الحديقة عند باب المطبخ لمحت عند قدميه شيئاً غير طبيعي ، الكلب صوت سيده وقد دخل إلى الحديقة مع صاحبه للمرة الأولى ، ووقف ينظر إلينا في بلاهة ويهز ذيله . ولم يكن غريباً من أمينة أن تسمح له اليوم بالدخول ، فللموت رائحة أقوى من كافة الروائح حتى رائحة النجاسة . واستأذن جمعة وابتعد في خيمته مطرقاً ، حاملاً كما يبدو هم عملية الدفن أكثر منه حزناً على الطفل الذي مات . أما أنا فلم أجد في نفسي ذرة واحدة من الحزن عليه ، ولربما كنت أقرب إلى الارتياح وقد خلص هذا الكائن التعس من ترديد ذلك اللحن الجنائزي الصديء الذي لم يعرف قط غير كلمة آه .

ثم غامرت بعد حين بالتزول إلى الحديقة وقد خيم الصمت على الشونة إلا من صراخ الفرخة التي تبيض . على الكرسي القش الأصفر جلست مستمعاً إلى صوت السكون ، ثم ساورني إحساس بأنني تحت المراقبة . وفي الثغرة القريبة من السور رأيت البوز الطويل البني لصوت سيده وهو ينظر نحوي متسائلاً : هل أدخل ؟ وبالرغم من أنني لم أجبه

فأنه دخل ، وبالقرب مني وقف بهز ذيله حائراً ماذا يفعل بنفسه وقد أصبح في الحديقة المحرمة ؟ فأحسست برغبة ملحة في أن ألمسه ، وإن ساورني في الوقت نفسه نوع من النفور بسبب فكرة نجاسته ، فما لبثت أن ضحككت من نفسي ومددت يدي نحوه داعياً .

- تعالى يا فيدو . قرب هنا .

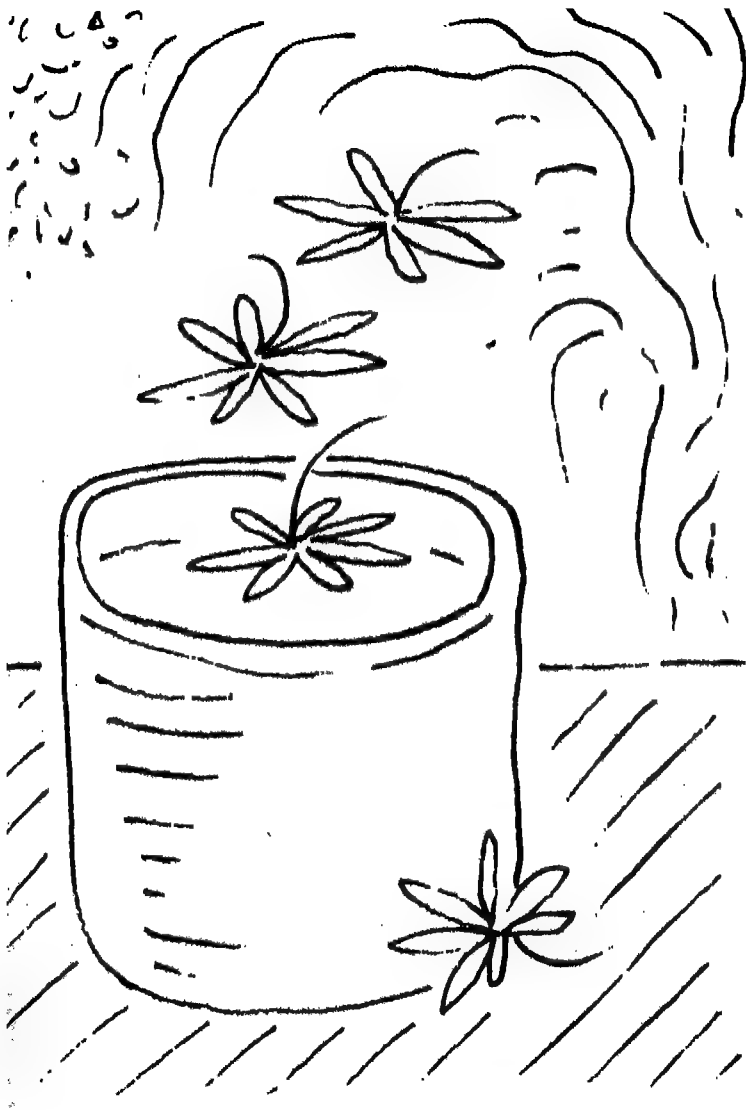
فكان دوره في أن يتردد إزاء هذه المبادرة التي لا سابقة لها ، ثم بدأ يتحرك نحوي على مهل . خطا خطوتين وتوقف ، ثم خطوة أخرى جعلته أمامي . ونحو يدي الممدودة أدنى رأسه وخفضها لكي يتيح لي أن أربت على دماغه البنية العارية من الشعر .

- أنت صحيح نجس يا فيدو ؟

هكذا سألته فأصدر صوصوة خافتة غير مفهومة ، وأضفت قائلاً :

- البقية ف حياتك يا سيدي .

فهز ذيله بشدة حتى رقصت مؤخرته كلها ، وكانت طريقته في رد العزاء أن مال برأسه وخطف من ظهر يدي لحستين لزجتين بلسانه الطويل الأسود النجس .



الفصل الرابع عشر

« لا تسرف في القلق على زوجتك - ماذا عن التذكرة ؟ - العجوز والكوافير وشاي بالياسمين » .

أمينة في السرير وشاي بالياسمين

طول عمري أقلق على أمينة إذا مرضت مهما كان مرضها تافهاً ، وكنت أفسر ذلك بشدة حبي لها وخوفي عليها ، إلى أن تدخل في الأمر عالم وغد من علماء النفس فأخطرني بأن إسراف الإنسان في القلق على المريض ما هو إلا محاولة لا شعورية من عقله الباطن لإخفاء رغبة كامنة هناك في أن يكون ذلك المرض قاتلاً ! فأزعجني ذلك الكلام بالطبع ، لكنني بمجاهلته بصفته رغبة لا شعورية عند صنف من علماء النفس في تشويه كافة الدوافع النبيلة وتعكير مزاج أصحابها .

غير أنني معذور في قلقي عليها هذه الأيام ، بسبب تلك الدوخة التي أصبحت زائراً شبه يومي لها. فاستدعينا الدكتور فتحي ، الرجل القصير النحيف الهادئ إلى درجة البرود ، طبيب الأسرة منذ سنوات . بدقته الشديدة وأناته المعهودة كشف عليها ، وراح يستبعد على طريقته ما يجب استبعاده من الأمراض ، ثم قال بصوت محايد :

- ضغطك مرتفع شويه ، قللي الحواديق . وياريت تعملي لي تحليل سكر . وكان تحليل السكر سلبياً ، فأمرها بأسبوع من الغذاء الصحي والراحة في السرير مع بعض الأدوية .

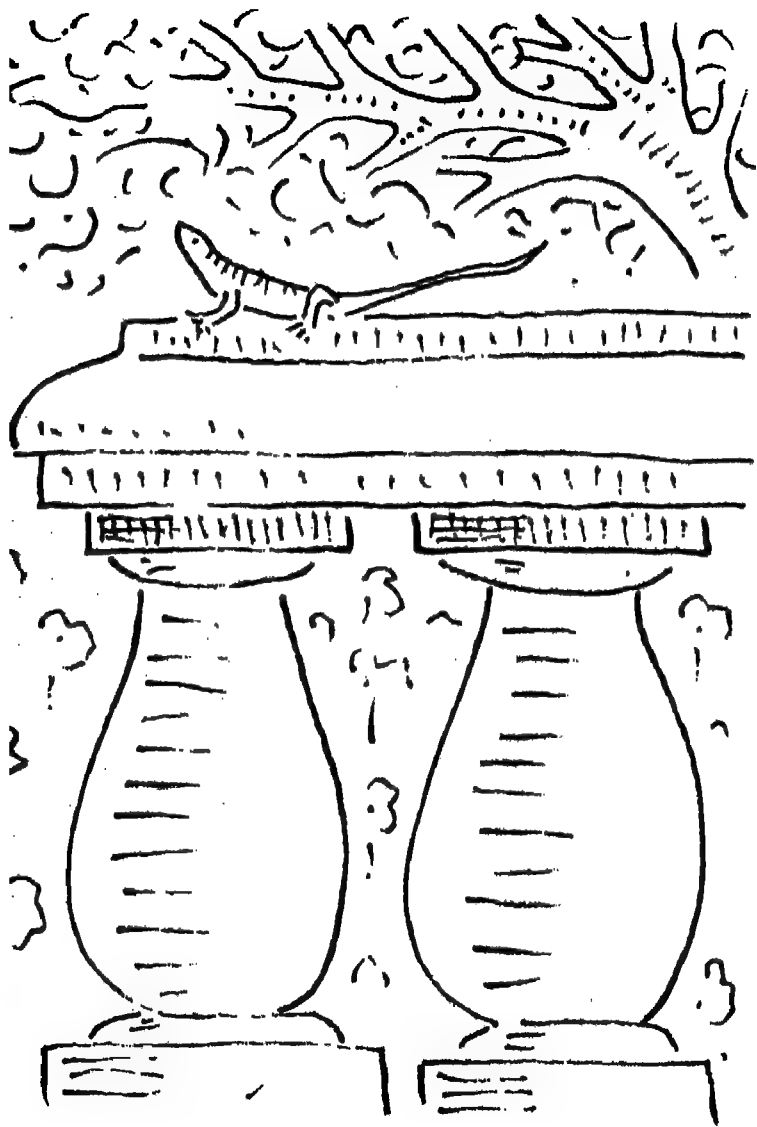
وهناك قالت لي أمينة وقد رأتني جالساً أمامها لا أتحرك :

- أنت ح تربط نفسك جنبي كده ليه ؟ قوم على جنيتك جنب أشجارك !

- وسحبت بلوكنوتا وقلماً وقالت :
- دنا ح اكتب جواب لحبيبي .
- فما كادت تشرع في الكتابة حتى بدت عليها الحيرة وقالت :
- بس ح اقول له إيه على تذكرة الطائرة ؟
- فاقترحت عليها أن تكتب اليه عن الفرق بين الجمع والمثنى عند مخاطبة الوالدين ، لكنها قالت متجاهلة :
- اقول له إيه صحيح ؟
- ح تقولي له إيه ؟ قولي له كتر خيرك وموش عاوزين النهاردة !
- فقال متخابثة :
- طبعاً أقول له بيعت كمان واحدة ، يمكن تطلع في دماغك تاخدني ونسافر !
- فقلت ساخراً :
- أنا أسافر أمريكا ؟ دنا باسافر بالعافية لآخر الجنية !
- ونفضت فأحسست بالوخز في ركبتني كأنني طلعت السلم .
- أنا قاعد جنبك في البلكونة هنا ، إذا عزتي حاجة .
- وتركتها وهي تعض القلم في حيرة ، تلميذة ملخومة في الستين .
- وفي الشرفة جلست على الكرسي القش الأحمر بعد أن نظفته من زهور الياسمين . الوقت أصيل وأنا لا أحب الأصيل وأفضل أن أقضيه نائماً .
- هو أشبه شيء بامرأة عجوز تذهب إلى معهد التجميل كل يوم ، وتعود منه لتجلس أمامي محاولة أن تستكشف رأيي في عيني ، وهو الرأي الذي ينجب رجاءها على الدوام فتشيع في مجاعيد وجهها صفرة تشبه صفرة هذا الأصيل . وظلال الأشجار قد بدأت تستطيل وتتداخل فأعتمت

الحديقة قبل موعدها . والشجرة الطويلة الرشيقة المهندمة قد اكتست
بغلالة حزينة صفراء .

وبجانبي سقطت زهرة ياسمين في الكوب الخزف البني ، طفت على
سطح الشاي مثل زهرة لوتس على سطح بحيرة مقدسة . وأمينة مثل
الكثيرين تحب أن تشرب الشاي بالنعناع ، فلماذا لا أكون أنا أول
من يجرب شربه بالياسمين ؟



الفصل الخامس عشر

« لماذا لم تأكل القطعة السحلية ؟ - غذاء العيال الحلوين - الأمهات
الحنونات الفاتنات » .

القطة والسحلية

موني راقدة على جنبها تلمس صدرها الأبيض وما يطوله لسانها من بطنها ، مثلما كانت تفعل زمان في عهد الشباب في أيام الحمل الأخيرة ، إذ تريد أن تجهز أئدائها الستة لاستقبال القطيطات العزيزة المرتقة . لكن اليوم بالطبع لا تهدف إلى شيء أكثر من النظافة العامة . رأيتها في مثل هذه الرقدة ترضع أربع قطيطات مختلفة الألوان ، عالقة بصدرها وبطنها مثل ديدان كبيرة شرهة تلتهمها التهاماً . وهي مستسلمة سعيدة تمد لسانها بين حين وآخر لكي تلمس ظهور القطيطات وتنظفها ، وفي قول آخر أنه لا نظافة هناك ولا يحزنون ، وانما هي تريد الانتفاع بما يوجد بوفرة في فروة القطيطات من فيتامين ب .

ولأمر ما رأت أن تقطع عملية الرضاعة وتنهض ، متخلصة بصعوبة من الديدان المتشبثة بجسمها . وهناك في الركن تركتها واتجهت مسرعة نحو السور النباتي ، ناظرة إليّ وهي تنونو كأنما تقول :

— خلي بالك م العيال !

ولم تغب في الشونة أكثر من لحظات ثم عادت متواثبة في نشاط ، من فيها يتدلى شيء طويل يتلوى قد يلتبس أمره على غير خبراء الحقائق ، أما الخبراء ، فيعرفون فيه على الفور سحلية سمينة نصف صاحية . ويتساءل غير الخبراء عن السبب الذي من أجله لم تأكل القطة تلك السحلية ،

فيجيبهم الخبراء بأنها ما صادتها لتأكلها وإنما صادتها من أجل العيال
الحلوين ، الذين لم يعد لبن الأم يكفيهم وصار تنويع الغذاء أمراً ضرورياً
لصحتهم .

بالسحلية قصدت اليهم ووضعها أمامهم ، فأقبلوا يشمونها ويفحصون
أمرها ، وكانت فيما يبدو أول سحلية يعاينونها في حياتهم . وأعجبهم
الوليمة فبدأوا يمزقونها ويأكلون ، والأم الحنون واقفة تتفرج ولا يخطر
على بالها أن تمد يدها لتصيب فتفتوة واحدة . فهي صورة مؤثرة حقاً
للحنان الذي تتميز به موني بالرغم من سفالاتها الأخرى العديدة .

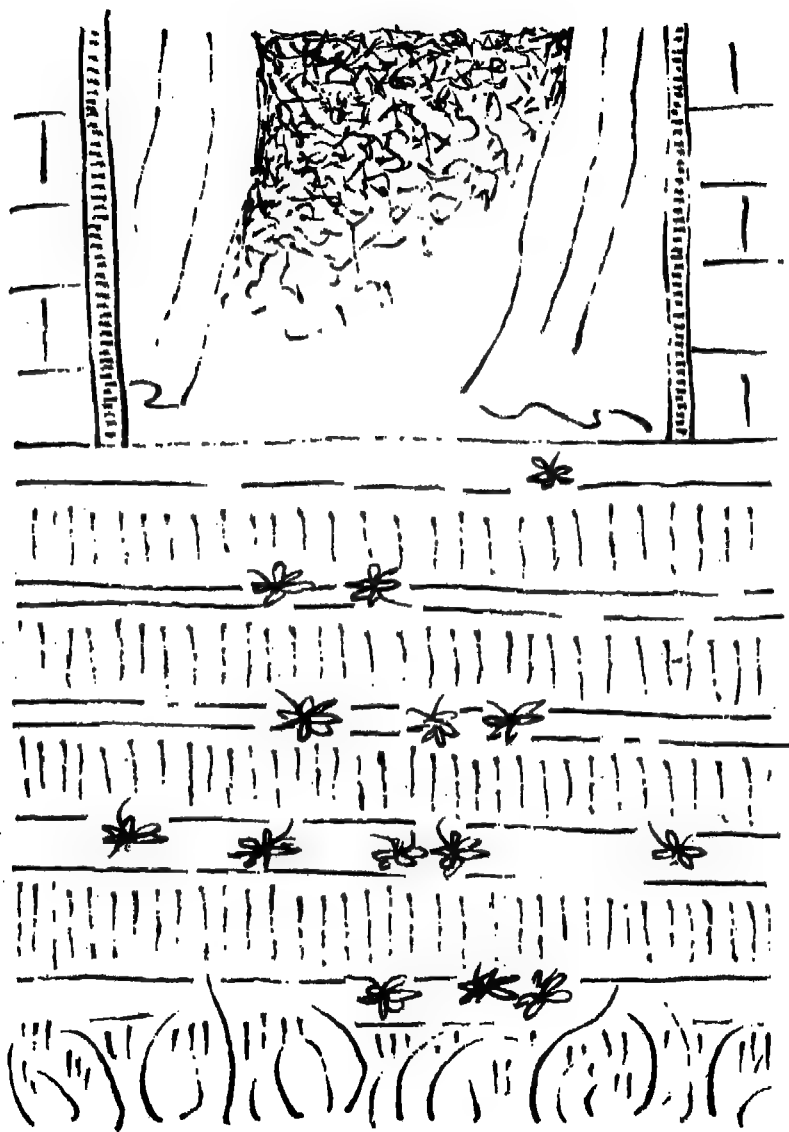
وما كان لي بالطبع أن أنسى الأم الحنون الأخرى وهي السحلية ،
التي لا أشك من أنها ما غادرت العش بدورها إلا لتلتمس شيئاً من الغذاء
لعيالها الحلوين . أم حنون وجدت نفسها في لحظة من سوء الحظ بين
أنياب أم حنون أخرى أكبر حجماً ، والأمر كله يستوي ما دام يجري
في حجر الأم الحنون الكبرى ، أمهن الأرض .

ومددت يدي نحو موني أتحنس بطنها البيضاء وأقول مداعباً .

— أوعي يا بت تكوني حبلي على كبر !

فصوبت إلي نظرة استنكار تقول :

— بلا نيلة ! أنا قادرة أكل عشان أحبل ؟ !



الفصل السادس عشر

« أيام نظيفة وعصيبة - عن الهباب والياسمين - ياسمين في الزبالة -
لغز السم المعطر - البلهاء العزيزة » .

الياسمين على البساط

لأنها طويلة ورشيقة فقد كان يجب أن تكون أكثرهن عذاباً أمام تلك الرياح الوضيعة المسماة بالخماسين . فتلج الرياح وإن عصفت بزهرة وتمارا فهو عصف محتمل لا يسقط منهما إلا بعض الأوراق ، وأما عصفها الشديد فعند قمم الأشجار المرتفعة ، تلعب بها بقسوة وتدفعها يمينا ويساراً ، فيبدو للإنسان من شدة ميلها أن جذعها قد ينكسر في أية لحظة من هذا العبث الربيعي . فإذا كان الشتاء يقسو على الناس في الخارج فهو يعوض ذلك بأنه يقسو علينا في الربيع ويوشك أن يحرمنا منه . فإذا تغنى شعراؤنا هنا بنسمات الربيع الحنون فهم لا يزيدون عن كونهم ببغاوات تردد ما يقوله الشعراء الذين عندهم ربيع حقاً ، ويتعامون عن تلك الرياح المتربة التي تكسو الأشياء باللون الأصفر الكئيب وتزيد العيون عماء على عمائها .

فتحت باب الشرفة فقابلتني دفعة ريح قوية مائلة إلى السخونة إلا أنها تستحق أن أجربها . وفي الداخل جلست على الفتوي اللبني الذي كان أزرق ، ناظراً إلى أرض الشرفة التي أغرقها الرياح بزهور الياسمين الساقطة . ودفعة أخرى قوية من الريح نفخت كمية من تلك الزهور إلى داخل الحجرة لتزين البساط النبتي العتيق بالدوائر البيضاء المعطرة ، وصوت خبط ورزع أسمعه من بعيد على النوافذ وقطع الأثاث ، إذ أخذت

أمنية إلى الراحة أسبوعاً كاملاً فكان يجب أن تعوض بيوم من النظافة الحادة ، وبمنفضتها الكبيرة المفزعة راحت تضرب كل ما يقابلها من الأشياء الضعيفة العاجزة كالكراسي وغيرها . وها هو صوت الخبط يقترب في الطرقة الطويلة ، وما لبثت أمانة أن ظهرت عند مدخل الصالة ، فما كادت ترى المنظر على الأرض حتى ضربت بيدها على صدرها .
- يا ندامتي ! إيه جاب الهباب ده هنا ؟ !
فقلت متهكماً :

- عشنا وشفنا الياسمين يتسمى هباب !

فتجاهلت كلمتي وقالت :

- ما أنت فاتح لي الباب على آخره !

وابتعدت مسرعة إلى الطرقة الصغيرة المؤدية إلى المطبخ ، اختفت لحظة وعادت تحمل المقشة ذات اليد الخشبية الطويلة والجاروف :
بالمقشة تدفع هباب الياسمين نحو الجاروف ، في نشاط غير مألوف غابت عنه كافة أعراض الروماتزم . وانتهت من تحميل الياسمين في الجاروف فانبجحت إلى باب الشرفة قائلة لي باستئذان ساخر :
- ممكن أقفله بعد أذنك ؟

وكانت قد أقفلته فعلاً وهي تهرطم قائلة :

- مش قادر يبعد عن الشجر يوم واحد !

فلم أعلق بشيء ، إذ تعلمت بالتجربة أن أنجاهل رذالتها الصغيرة ما أمكنني في مثل هذه الأيام النظيفة . وحملت هي الجاروف وانبجحت به إلى المطبخ حيث يلقي الياسمين نهايته الحزينة في صفيحة الزبالة . فتذكرت بحثاً قرأته في إحدى المجلات ولا أعرف مدى صحته ، عن النبات اللائي يحترفن جمع محصول الياسمين في مزارعه عاماً بعد

عام ، كيف أنهن جميعاً يمتن قبل سن الثلاثين لأسباب تبدو غامضة وإن كانت غاية في الوضوح وهي علاقتهن بزهور الياسمين . ذلك أن رائحة الياسمين الزكية المسكرة ليست بريئة بقدر ما تبدو ، بل هي في الحقيقة سم قاتل لمن يدمن تعاطيه زمناً طويلاً . عاماً بعد عام يتغلغل السم المعطر في صدور البنات المسكينات ويعشش هناك ، متسرباً إلى دماهن شيئاً فشيئاً لكي يقتلن ذلك القتل البطيء . وفي جوف القبر العفن المظلم ، ترى كم من الزمن يتضوع عطر الياسمين من جسم البنت التي ماتت في سبيله ؟

وهبة ربيع شديدة فتحت الباب الذي أقفلته أمينة ، ولوثت البساط النبتي مرة أخرى بالزهور الضاحكة البيضاء . فتنهدت ونهضت لأجمعها ، وفي راحة يدي رفعتها إلى أنفي لكي أنهل من عطرها قبل أن أضعها في جيب الروب الرمادي . نعم هي سوف تذبل هناك وتموت ، لكن ربما كان جيبي قبراً أكرم لها بعض الشيء من صفيحة الزبالة . وباب الشرفة أقفلته كما كان ووقفت وراء الزجاج أقول للصديقات معتزلاً :

- معلش يا حلوين ، سامحوني النهاردة .

ومن وراء ظهري أتاني صوت أمينة يقول لي في دهشة :

- بتكلم مين ؟

فأجبتها في إيجاز :

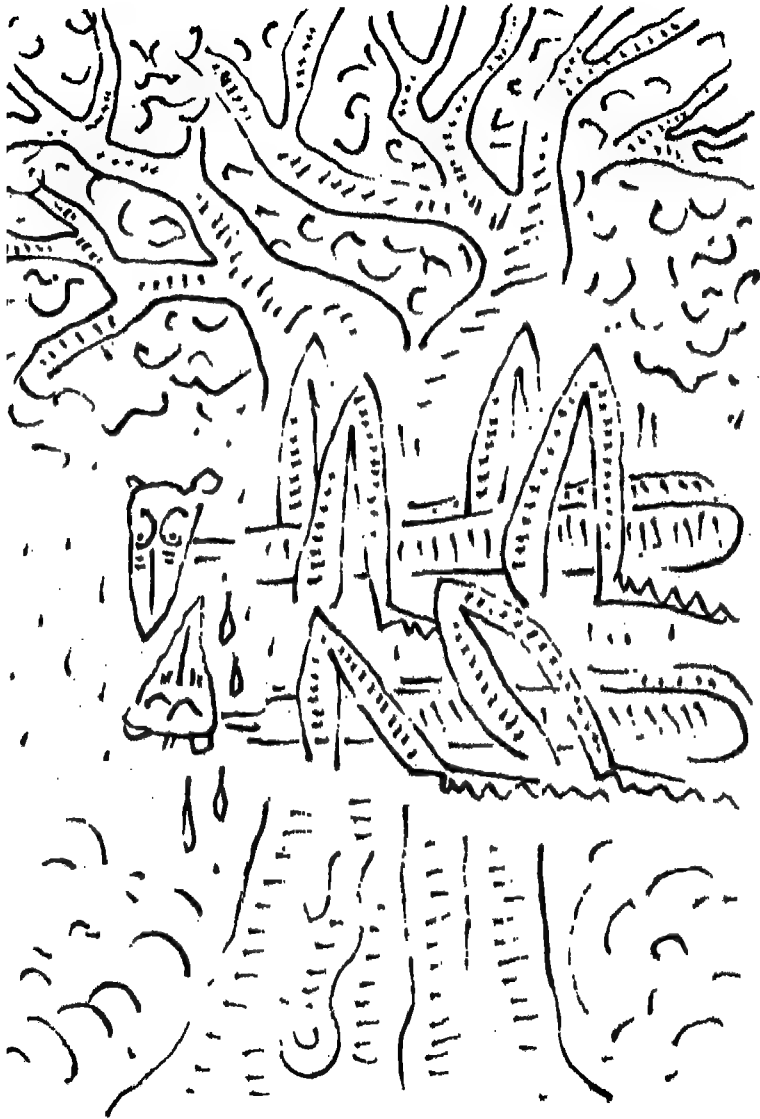
- الشجر طبعاً .

وانتظرت أن تقول لي كلمتها المخاللة عن عقلي واكتماله لكنها

لم تفعل ، بل قالت بنبرة بريئة إلى درجة السذاجة :

- وهو الشجر ح يسمعك والباب مقفول ؟

فوجدت نفسي بالرغم مني أهتز بضحك مكتوم ، وقصدت إليها
كي أطبع على تجاعيد خدها قبلة حب .
- اشمعني يعني ؟
هكذا سألتني في استغراب فقلت لها صادقاً !
- بإحبك .



الفصل السابع عشر

« رغبة دموية - هل هي تصلي ؟ - عروس وضبيعة - الحب بغير
رأس - هو يحب وهي تتغذى » .
« طعام الصفوة - نظرة الموت الأخيرة - الثعبان المعتذر » .

فرس النبي

على خضرة ياسمينة القريبة رأيت شيئاً أثار في نفسي على غير مألوفي
 رغبة شديدة في القتل ، إذ فضحت نفسها بحركة صغيرة تلك الكتلة
 الطويلة من الخضرة المتييسة . رأسها مثلثة مثل كرسي البسكليتة ، وذراعاها
 مسننان مثل المناشير ، وبين حين وآخر ترفع يدها حول رأسها وتحركهما
 فيخيل إلى السذج أنها تصلي .

- نفسي أقوم أقتلها !

هكذا قلت لأمانة حيث جلسنا في الشرفة في صباح خفت فيه حدة

الرياح :

- هي إيه ؟

- المجرمة دي .

وأشرت إلى فرس النبي فراححت أمانة تبحث عنها بعينها وسط الخضرة

حتى رأتها فقالت :

- حرام دي مبروكة !

وحيث جلست على الكرسي الأخضر الذي نقلته إلى الشرفة شرحت

لي كيف أن هناك رايأاً له ثقله يؤكد أن النبي عليه السلام قد امتطى واحدة

من بني جنسها إلى بيت المقدس ليلة الإسراء .

- تحبي أحكي لك اللي قريته عن المبروكة دي ؟

وقبل أن تجيب بنفي أو إيجاب رحت أحكي لها كيف تترصد تلك الوضيعة الخضراء مثلما تفعل الآن في انتظار عريس الغفلة ، عالمة أنه لن يلبث أن يصل ليقع في الشرك الذي سبقه إليه الكثيرون . فإذا وصل فما هي إلا لحظات من تردد الحياء حتى يتواجد في المكان الطبيعي بالنسبة للموقف وهو فوق ظهرها ، وكل شيء حتى الآن جميل .

هذه العروس قد حباها الله بميزة نادرة في عالم الحيوان ، وهي قدرتها الفذة على أن تلوي عنقها إلى الخلف وتدير رأسها دورة كاملة ، بحيث يصبح وجهها على حد تعبير الكوميديان الشعبي محل قفاها . وعلى مهل تدير تلك الآلة الجهنمية إلى الخلف حتى يصبح وجهها مقابلاً لوجه العريس تماماً ، الأمر الذي قد يوحى إلى مراقب شاعري النزعة - مثلما أوحى فعلاً إلى أكثر من عريس - بأنها قد اشتاقت في ذروة من الانسجام إلى أن تطبع على فم العريس قبلة حارة .

لكن القبلات كما يتضح بعد قليل هي آخر ما تفكر فيه تلك الوضيعة الخضراء ، وإنما هي تتلمس بغريزتها في رقبة العريس غدة خاصة وظيفتها كبح الغريزة الجنسية في الظروف العادية ، تلك الغدة التي تحولت في ظروفنا الحالية إلى عنصر معوق يجب استئصاله . بمهارة الجراح تشق في عنق عريسها شقاً مؤدياً إلى تلك الغدة ، وتشق في قرقرتها بأكبر قدر من الرفق كي لا تصدم مشاعر العريس النشوان . ومن تلك الغدة تنتقل إلى رقبة العريس نفسها ، وبفس الرفق والأناقة تشق في قرقرتها حتى تأتي عليها ، وحتى يصبح العريس فاقداً لعضو من الأعضاء الهامة نسبياً للكائن الحي وهو الرأس !

إذ أن الجهاز العصبي في تلك الكائنات ليس جهازاً مركزياً كما هو الحال عندنا ، بل أن كل عقلة من العقل المكونة للجسم تضم مركزاً

عصياً مستقلاً يمكنه أن يعمل لحسابه الخاض بغير اعتماد على الرأس .
ومن ثم يحدث كثيراً أن يواصل العريس وظيفته الغرامية ولمدة
طويلة وهو بغير رأس . هو غرقان لشوشته في حب السيدة وهي مشغولة
عن ذلك تماماً بالتهامه على مهلهما ، قطعة قطعة ، أي بالاختصار أنه هو
يجب وهي تتناول الغداء . فإذا ما استنفد بعد حين أغراضه كعريس
طرحته عن ظهرها أرضاً وشقت بطنه باحثة عما فيها من القطع المسكرة
على سبيل الحل .

— شفتي يا ستي المبروكة بتاعتك ؟

فلم يجب أمينة من فورها ، متشاغلة باحصاء الغرز الزرقاء على إبرة
التريكو وقد تقاربت عيناها فوق أنفها فبدت شبه حواء . وأخيراً قالت
متسائلة :

— جبت الكلام ده مين ؟

— من الكتب :

فقالت في إيجاز حاسم ؟

— ما تصدقش كل حاجة تقرأها في الكتب !

وأضافت قبل أن أعترض ؟

— وسيني وحياتك أعد الغرز !

وواصلت عملية الإحصاء ، وواصلت أنا تأمل تلك الكتلة الشريرة
الخضراء وألوك أفكارى الدموية .

وخرفشة تحت السور النباتي وجسم قفز هناك مرتين ، ومن موضعي
في الشرفة لم يكن في وسعي أن أرى عيني ضفدوع . لكنني سمعت صوته
يقول :

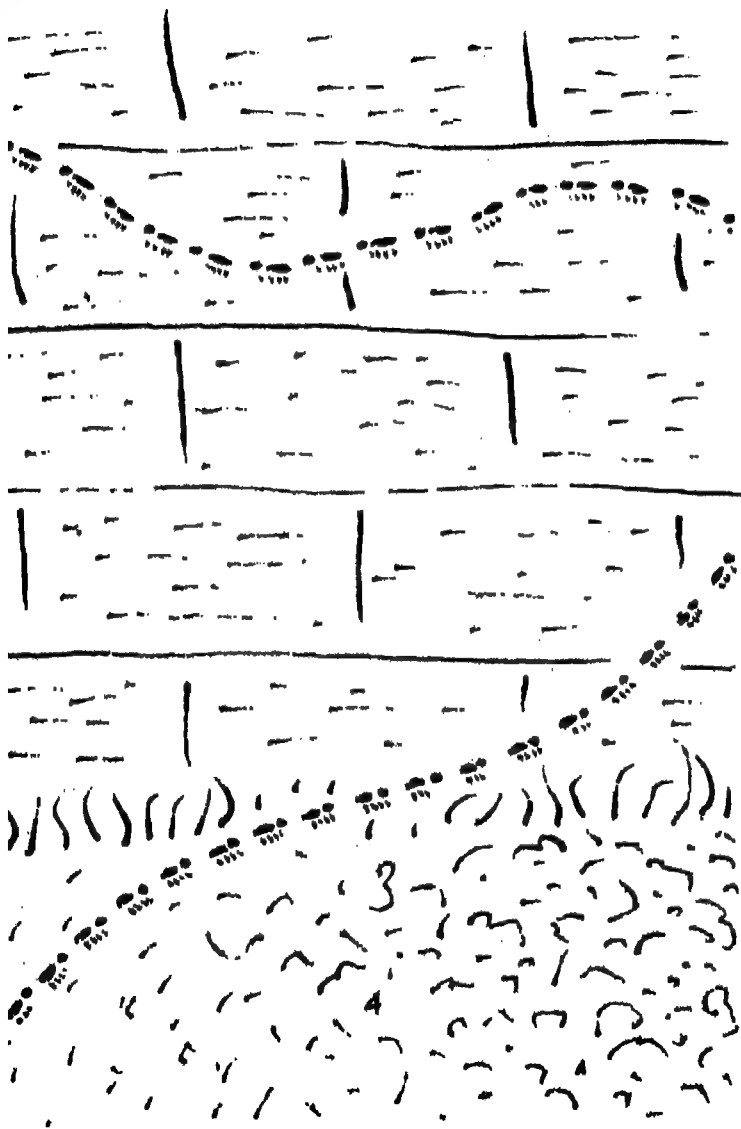
— آووو !

وكان في صوته نوع من التساؤل لأنه هو الآخر لا يمكن أن يراني من هناك ، وقفزة ثالثة أخفته عني في الشونة . وقفز ذهني إلى يوم كنت في حديقة الحيوان ووجدتني أمام بيت زجاجي كبير يقيم فيه ثعبان من نوع العمالقة ، في ركن من البيت رقد الثعبان ملفوفاً على نفسه كأنه حبل من حبال البحارة كومه على رصيف الميناء ليسحبوا به عند الطلب إحدى السفن ، غارقاً في النوم وفي عينيه السوداوين المفتوحتين براءة طفل رضيع . أكل فشيح فنام ، فإذا صبحاً جائعاً فما عليه إلا أن يمد رأسه إلى بركة ماء قريبة منه في نفس القفص ، وفيها تعيش قبيلة من الضفادع مختلفة الأحجام ، تأكل ما تجد في الماء الراكد وهي في حال غريبة من الطمأنينة واللامبالاة بالخطر الجاثم بجانبها طول الوقت . ويصحو الثعبان فيمد رأسه نحوها ليفحصها متخيراً منها ما يصلح لوجبه .

مدى لحظة تلتقي عيناه السوداوان في أغرب نظرة بعينين جاحظتين للضفدعة ، يتبادلها كائنات قبل أن يأكل أحدهما الآخر . في عين الثعبان بحث عن الكراهية فلم أجدها ، ولا وجدت أي شعور بالإثم . وفي عين الضفدعة لم أجد الخوف ولا حتى مجرد العتاب . فبينما أنا أنظر في عيني الثعبان خيل إلي أنني سمعته يقول للضفدعة :

- أنا شديد الأسف يا أختاه على ما سوف يصدر مني حالاً ، لكنك تعرفين أن هذا هو ناموس الحياة . لكي أعيش أنا يجب أن تموتي أنت ، ويا ليتهم وضعوا لي بدلاً منك فاراً سميناً أو خنزيراً صغيراً مشبعاً . أما وليس أمامي سواك فلا مناص لي من أن آكلك ، وما أحسبك ترضين لي بتلك الفضيحة بين أقراني ، أن أكون أول ثعبان في التاريخ يموت بسبب إضرابه عن الطعام لاعتبارات أخلاقية .

وكنـت أحب أن أسمع بماذا ترد الضفدعة على هذا الكلام ، لكن
الوعد لم يمهـلها .
وسوف تظل الحداثق خير مكان يقضي فيه الرجل العاقل وقته
طلما كان فيها إلى جانب الشجر والزهر والعصافير والقطط - ضفادع
ذات عيون جاحظة - متسائلة ، حقيقة لا تغير منها تلك الخلفية البعيدة
من الأنين الأبدي في الأسطوانة التي علقت على كلمة آه .



الفصل الثامن عشر

« الطابور الأبدي - قاتل النملة في جهنم - الجملة والقطاعي في
قتل النمل - حاسب النمل يا جمعة » .

النمل وأمي وجمعة

طبعاً دست عليه أكثر من مرة دون أن أنتبه ، طابور النمل الشغال طول الوقت عند سلم الشرفة ، وكان انتباهي على إحساس بالفركة العامة تحت قدمي ، فأنظر لأرى عشرات من النمل تهول هنا وهناك في حال من الفوضى الطارئة ، غير النمل الذي يتلوى على الأرض وقد تحطم تحت ثقل قدمي الغليظة ، لكن الطابور في عمومهم يظل سائراً كأن شيئاً لم يكن ، يمر بالنمل المتلوي فلا ينظر إليه أصلاً ، أو ينظر إليه ولا يراه ، أو يراه فلا يبدي أي نوع من الاكتراث بالأمر . فالمسألة عنده حادثة يومية لا طلعت ولا نزلت ، وواحدة من المخاطر المألوفة في مهنة النمل .

وذاث يوم وأنا طفل كنت أرى النملة سائرة فأضربها بقدمي وأقتلها عامداً متعمداً ، شاعراً بأنني أمارس حقاً وأؤدي واجباً وأنا أقتل هذا الكائن المهيّن الذي يعترض بهذه الجراءة طريق كائن عظيم مثلي . ورائتي أُمي أفعل ذلك فوبختني أشد التوبيخ ، وحدثني بما ينتظر القساة أمثالي من البهدة يوم القيامة ، ومن عذاب الحريق بعد ذلك في جهنم خالدين فيها أبداً . فلأني هذا الحديث رعباً وأقلعت تماماً عن قتل النمل ، بل وصرت أمشي مطأطئ الرأس نحو مواقع قدمي مخافة أن أقتل ، حيث لا أدري نملة مسكينة شاردة .

و ذات يوم رأيت أُمِّي تحمل زجاجة كبيرة نفوح منها رائحة الجاز ،
وتتجه بها نحو ركن في المطبخ حيث جلست القرفصاء لكي تفرغ
محتوياتها في أحد الحجور هناك .

- بتعملي إيه يا نينة ؟

هكذا سألتها في براءة فلم تجبني ، إذ كانت كما تبينت بعد ذلك
تصب الجاز في أحد أوكار النمل بقصد إبادته وتطهير المطبخ منه .
فعجبت أشد العجب من هذا التناقض الصارخ أمامي ، إذ تستبجح أُمِّي
لنفسها قتل آلاف النمل بضربة واحدة ساحقة ، في حين تحاسبني أنا
على استمتاعني البريء بين حين وآخر بقتل نملة واحدة يتيمة فهل هي
لا تكثرث بما ينتظرها يوم القيامة من عذاب أليم ، أم تراها تعرف
- دون أن تقول لي - أن قتل النمل بالجملة حلال في حين أن قتله بالقطاعي
هو وحده الحرام ؟ أم أن المسألة أخطر من ذلك ، وأن الله جل جلاله
يكيل للناس بكيلين ، فيبيح للأمهات الكبيرات القويات من الجرائم
ما يحرمه على أطفالهن الصغار الغلابة المستضعفين ؟

وأسئلة كثيرة من هذا النوع شرعت في توجيهها إلى أُمِّي التي
استمعت إليها حيناً في صمت لتستوعبها ، فلما تم لها الاستيعاب قالت
في إيجاز صارم :

- اجري لعب برة !

وصوت لتدفق المياه من الخرطوم على أرض الحديقة خلف البيت ،
ثم ظهر جمعة بعد حين وهو يسحب الخرطوم على الأرض ويصبوه
هنا وهناك لزوم الري . حتى أرض المشي الرملية يجب أن يرشها لكي
يثبت الرمال على الأرض ، وها هو قد أصبح على بعد متر واحد لا غير .
من طابور النمل .

— حاسب النمل يا جمعة !

هكذا هممت بأن أصرخ فيه لولا أن أمسكت لساني في آخر لحظة ، إذ أن كلمة كهذه كفيلة أن تثير عند جمعة دهشة بالغة قد تبلغ حد الشك في قواي العقلية ، ولربما صرت أضحوكة في الحنة لزمن طويل . والنمل مهما طلع أو نزل لا هو من الثدييات ولا من الطيور أو غيرها من الفقاريات التي أمت إليها بصلة القربى ، فلماذا أجعل نفسي هزواً في سبيل كائن لا تربطني به أي علاقة بيولوجية مباشرة ؟

فاكتفيت بأن أدرت وجهي عندما وصل بالخرطوم إلى طابور النمل ، متخيلاً المئات منه وهي تنفصص على الأرض أو تطير في الهواء أمام سيل المياه الجارف . ونظرت إلى وجه جمعة فوجدته باسمّاً سعيداً يحرك الخرطوم يميناً ويساراً وكأنه مدفع رشاش يصوبه إلى طابور المخالفين له في الرأي . وما لم يقتله بالماء قتله بقدميه الحافيتين الغليظتين وبالخرطوم الذي يسحبه وراءه في رحلة الري المدمرة .

فنتهدت في استسلام وسكت ، وماذا كان في إمكاني أن أفعل ؟ هل نترك الحديقة تموت من العطش فداء للنمل وسائر الدواب الصغيرة التي تغرقها مياه الري ؟ وكان مما هون علي الأمر أن أياً من سكان الحديقة لم يبد أي نوع من الاكتراث بما حدث ، ما من غصن تحرك في تمارا أو ليمونة سقطت من زهيرة ، ولا البسمة فارقت وجه القرد الضاحك في حوض البانسيه ، فلماذا أنفرد أنا بحمل كافة التبعات على كضي ؟

وابتعد جمعة بالخرطوم فابتعد معه صوت الماء ، ومن آخر الشونة ترمى إلي صوت بكاء الطفل الجديد الذي كان مستكناً في جوف أمه ، والذي نزل ليتربى بدلاً من شحاتة في عز جمعة . وكان بكأؤه حتى هذه

اللحظة ما يزال بكاء ، لم يتحول بعد إلى تلك الإسطوانة المعلقة على
كلمة آه .



الفصل التاسع عشر

« لا تخرج ، يعني أخرج - كيف تعرف أن هذا الكائن ميت ؟ -
عندما شعرت أنني أكره أمينة - بندقية ماركة صوت سيده » .

موت فيدو

- قالت لي أمينة وقد رأني أنزل السلم الأربع إلى الحديقة :
- أحسن لك ما تطلعش برة ع الرصيف ! خلي تمشيتك النهاردة جوة !
فأدهشني قولها طبعاً .
- ليه ، فيه إيه ع الرصيف ؟
- أنا عملت اللي علي وقلت لك !
- وأسرعت بالاختفاء من باب الشرفة قبل أن أواصل التحقيق معها .
- وكان واضحاً أن هذه دعوة صريحة لي كي أخرج إلى الرصيف ، وما كانت لتقول لي ذلك لولا خوفها من أن أكتفي بالتمشية في الحديقة ولم أر أول الأمر أي شيء غير عادي ، فالرصيف هو الرصيف من نفس الشارع الصغير الهاديء . ثم اتجه بصري يساراً نحو باب الشونة المحاذي لباب الحديقة على بعد أمتار ، فرأيت تلك الكتلة البنية المكومة هناك على الأرض . نحوها خطوط لكي أتبين فيها جسم صوت سيده ، وكان ساكناً أكثر مما يناسب كلباً نائماً ، أعضاؤه المبعثرة حوله بلا نظام لا يمكن أن تنتمي إلى غير كلب ميت . نعم كان فيدو ميتاً ، وفي جنبه ثقب واضح للطلق الناري الذي أرداه ، ودم متكلس حول الجرح يجمع عليه الذباب .
- صورة للسكون الذي هو سكون ، والذي لا يدرك الإنسان معناه

إلا وهو ينظر إلى كائن ميت . اللانبض واللاحركة واللاوجود بأي شكل من الأشكال ، الكائن وقد تحول فجأة من حياة الخلايا النابضة إلى حياة الذرات الغامضة الخرساء ، سيان عنده الآن أن أسكب عليه الجاز وأشعل فيه النار ، أو أحضر ساطور المطبخ وأقسمه إلى شطائر صغيرة لزوم ققط الحثة ، لأنه ليس هنا أصلاً . لم يعد فيدو أكثر من صيغة نفى لكلب كان .

فالحمد لله أنني سمحت له في ذلك اليوم بأن يتشمس عندي ، كي لا يموت المسكين وفي نفسه شيء مني . وهو يعلم أنني كنت راغباً حقاً في أن أطعمه لولا رحلة المطبخ التي وصفتها له . وهكذا منحت في ذلك الصباح بعض ما يفتقده من الحب وأشعرته بأنه ليس نجساً بالقدر الذي يتهمون به .

— شايف التجربة يا بيه ؟

صوت جمعة الذي وصل من خلفي ، وفي وجهه حزن أكبر من الذي رأيته فيه يوم مات طفله شحاتة .

فقلت له في غيظ صادق :

— ابن كلب مين اللي يقتل كلب غلبان زي ده ؟

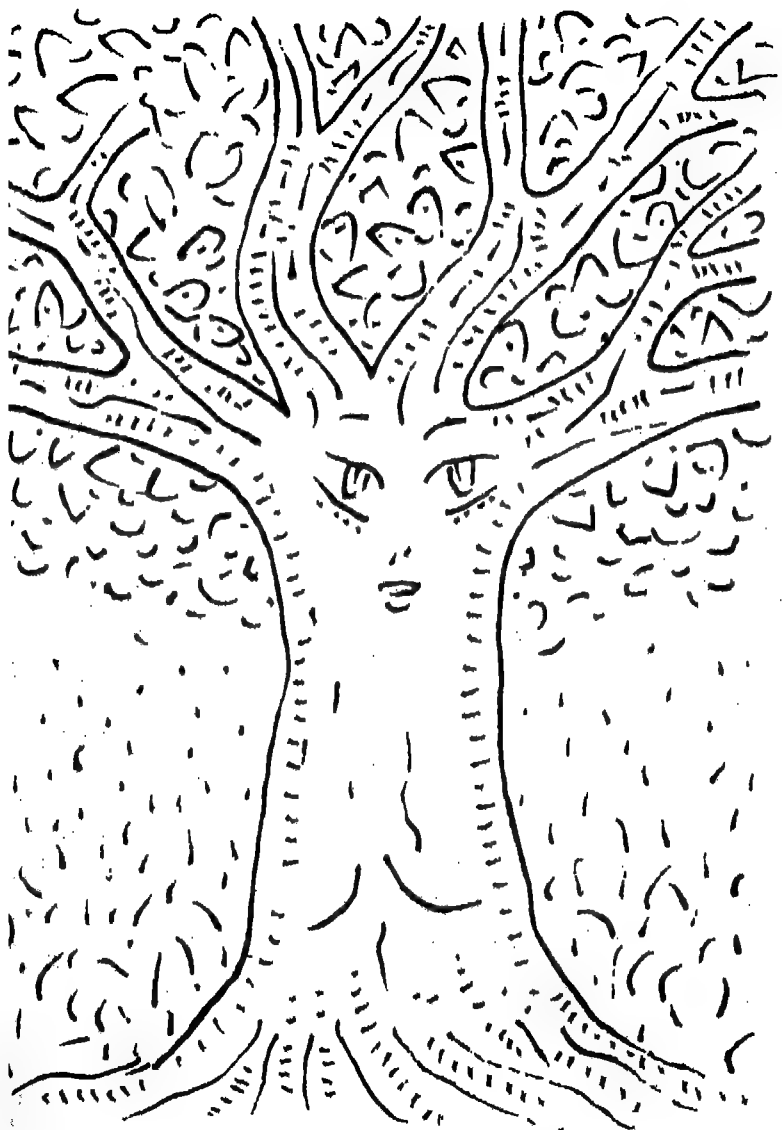
— الحرامية يا بيه بقوا بعيد عنك زي الواغش في الحثة . ربنا يسوقك يا عبد الله .

— عبد الله مين ؟

— الزبال عشان ياخذه في العريية .

وحرك ذيل جلبابه فأطار الذباب المتجمع على الجرح حولنا ، وبصعوبة منعت نفسي من أن أقول له : تعيش أنت يا جمعة ! وفي الداخل قابلتني أمينة قائلة بلهجة لا تخلو من شبهة شماتة .

- قلت لك بلاش تخرج برة !
فقلت لها في غيظ :
شكلك مبسوطه شوية !
 - ح انبسط ليه بقى ؟
 - كلب نجس وخلصني منه !
 - ولما أنت عارف كده زعلان ليه ؟
- وكانت هذه واحدة من الحالات التي أبذل فيها جهداً كبيراً كي لا أكره أمينة . وفي تلك الليلة سمعت ما بين النوم واليقظة صوت طلق ناري ينبعث من داخل الشونة ، وخيل إليّ أن البندقية التي أطلقت كانت مبحوحة الصوت نوعاً .



الفصل العشرون

« محاولة لتعريف الشجرة - اختفاء أكاليفا - هاو مع أو » .

من هي الشجرة ؟

نعم أنا أحب أن أكلم الأشجار بين حين وآخر ، بل أستطيع أن أقول أنني أفخر بذلك ، ويدهشني أمر أولئك الشواذ الذين ينكرون عليّ هذه الهواية الخلاقة الجميلة . شيء واحد يزعجني في ممارستي لهويتي ، هو ذلك الصوت الذي لا يبرح يلح عليّ طول الوقت بقوله :

— أين هي ، ومن هي ، تلك الشجرة التي تكلمها يا سيد !
إذ أنني أكلم الشجرة فأوجه بصري إلى كتلتها الكبيرة الخضراء المكونة من أوراقها ، ومن ثم يعيد السائل صياغة سؤاله :

— هل تعتقد يا حضرة أن الشجرة هي أوراقها ؟
فأجيب بالنفي طبعاً ، لأنني واثق من أن الشجرة ليست — كما خيل إليّ فعلاً لفترة ما — أوراقها . لأن الأوراق تشيخ وتصفّر وتبدل ، وتسقط على الأرض لكي تدوسها الأقدام بقطعة محزنة . والشجرة نفسها ما زالت قائمة في مكانها بجذعها وأغصانها ، عارية عن أوراقها حقاً لكنها ليست شديدة الاهتمام بهذا العري .

فيعود سائلي يقول بنبرة ساخرة مستترة :
— هل هي إذن جذعها وأغصانها ؟

فأتجاهل سخريته وأجيب بالنفي ثانياً ، إذ أعلم أن هذه الأشياء لا تزيد عن كونها الهيكل الخشبي المقابل للهيكل العظمي عندنا ،

وطاقم المواسير الذي ينقل الغذاء إلى الشجرة الحقيقية المجهولة .
- ما رأيك إذن (يواصل سائلي سخريته) في أن الشجرة هي زهرها
وثمارها ؟

فتغريني الفكرة بأن أجيب بالموافقة ، لكنني مرة أخرى أجيب
بالنفي فهل أنا قد أكلت زهيرة عندما ملأت بطني من عصير بتزهيرها ؟
وهل سلبت تمارا شيئاً عندما ملأت صدري من عيبرها المسكر ساعة
الغروب ؟

- لم يبق إذن إلا أن تكون الشجرة هي جذورها ، فما رأيك ؟
لكنني أعلم طبعاً أن الجذور ما هي إلا مخالب لتثبت الشجرة في
الأرض ، ومصاصات لما يزخر به جوف التربة من عصائر الغذاء . وهنا
يصل الصوت السائل إلى ذروة سخريته فيقول لي متخلعاً :
- إذن فأنت يا سيدي تكلم الأشجار بدون أن تعرف من هي الشجرة !
فاغتظت مرة وقلت له :

- هل أفهم من هذه الأسئلة المتعالية أن سيادتك تعرف من هي الشجرة ؟
فتريث لحظة في الإجابة ثم قال بضحكة سوقية صغيرة :

- ها أو أو مع أو :

أو لعله قال :

- ها أو أو مع مع .

ولأنني لا أظن أن هناك فرقاً هاماً بين القولين فقد نسيت الأمر كله .
وذات يوم قادنتي قدماي وأنا أتمشى إلى حيث تقوم أكاليفا ، عسى
أن تكون قد وجدت طريقة تفصح بها عما تريد أن تقول . وهناك كانت
المفاجأة الكبرى في انتظاري ، وهي أن أكاليفا ليست موجودة هناك
أصلاً ! كأنما انشقت الأرض وابتلعها فلم تترك منها إلا عصا خشبية

جافة مرشوقة في الأرض بارتفاع ركبتي . وغير بعيد رأيت كوماً كبيراً
من الألوان الفاقعة التي تؤلف أوراق ليفا ، مقطوعة مع الأغصان التي
تحملها ومع أكثر من نصف جذعها ، وملقاة في الركن تنتظر عربة
عم عبد الله .

مدى لحظة ظننت أن جمعة قد أصابته لوثة مفاجئة فقطع الشجرة ،
فناديته من خلال السور النبائي حتى رد عليّ فقلت أسأله !

- أنت اللي قطعت ليفا يا جمعة ؟

ولم يكن يعرف اسم الشجرة فقال !

- ليفة إيه يا بيه ؟

فقلت مصححاً :

- قصدي الشجرة أكاليفا ، أنت اللي قطعتها كده ؟

فقال متضحكاً من جهلي :

- أنا ما قطعهاش يا بيه ، أنا قرطتها ! عشان تكبر وتفرع وتبقى حلوة .

فقلت في غيظ :

- ما هي كت مفرعة وحلوة .

- لا يا بيه ، دي تفرع أد كده خمس ست مرات . اصبر عليها حبة

يا بيه ، دي ح تبقى شربات خالص !

فقلت مازحاً :

- أنا افنكرتها زعلت الحاج ف حاجة قال لك اقطعها !

فقال في بلاهة !

- الحاج ؟ !

- آه ، يمكن جه يدخل بالمقطورة وقفت في سكتة !

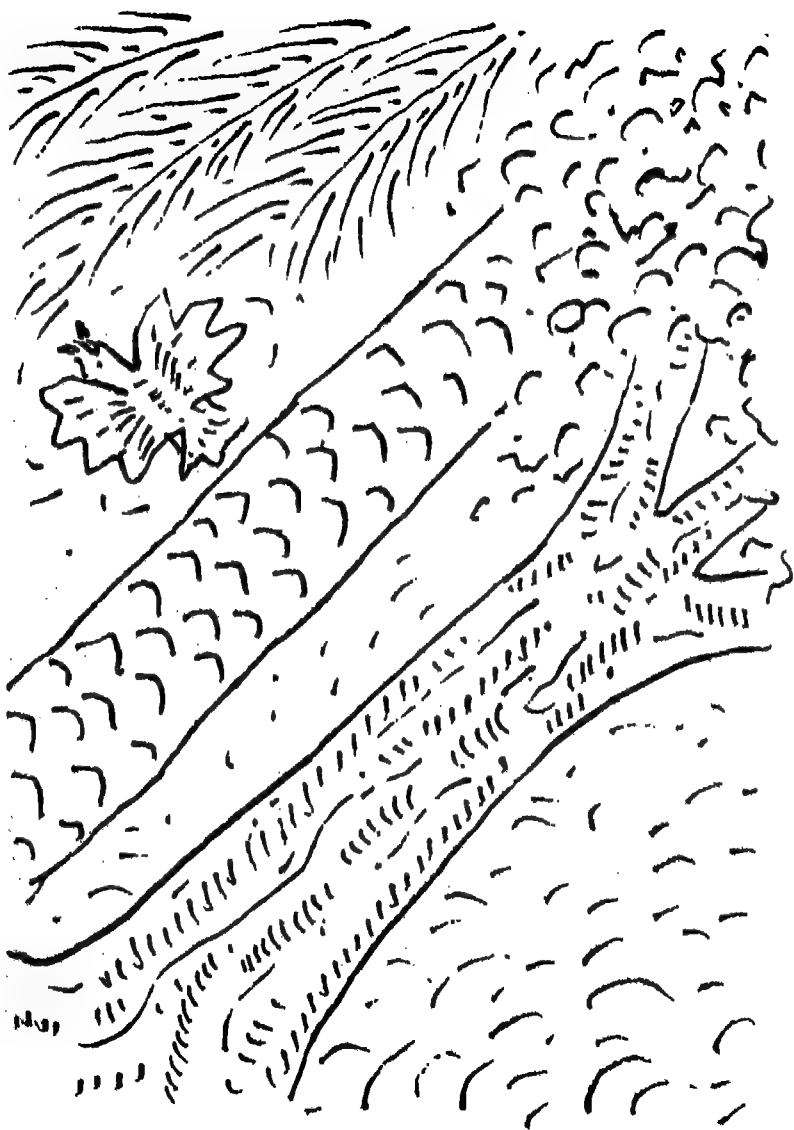
فلم يجب جمعة وقد استعصى عليه الفهم ، لكنه كان قد أثبت

بالدليل العملي الحاسم أنني أستطيع أن أقطع جميع أغصان الشجرة
بجميع أوراقها ومعظم جذعها ، وبالرغم من ذلك لا أكون قد قطعت
الشجرة !

لم تمت ليفا كما خيل لي ، أو لعلها ماتت وبعثت من جديد .
من جوف الخشب الأصم في العود الجاف بدأت تنبثق الأوراق الخضراء
من جديد ، صغيرة أول الأمر لكنها صارخة بنشيد الحياة . فهناك شيء
في جوف الشجرة قد أقسم - مهما مزقت أوصال الشجرة - يميناً مغلظاً
على البقاء . شيء لا أظن أنني سأنجح في معرفته أبداً ، لا أنا ولا ذلك
الوغد الذي يسخر مني بأسئلته السخيفة .
فقلت لتماما وأنا أربت على جذعها :

- يعني يجرى حاجة يا متمم لو تقولي لي أنتي مين ؟
فما من عود تحرك فيها ولا ورقة ، فاستدرت إلى زهرة بأمل ضعيف :
- ولا أنتي يا زوزو ؟

فكأنني بالنسبة لها ما قلت شيئاً ، ومن بحر الألوان في حوض
البانسيه اندفع جسم صغير أبيض للفراشة اللطيفة البيضاء . ومع رفيف
أجنحتها المبتعدة خيل إلي أنني أسمع صدى صوت يقول :
- ها أو هع هع أو .



الفصل الحادي والعشرون

« نفحة مباشرة من روائح اللجنة - دعوة ولية ساعة مغربية - هل
أكلت نحلة عاشقة ؟ وليمة متعددة الألوان - إنذار نهائي - يوم السقوط
العظيم » .

السقوط العظيم

هذا الوقت قبيل الغروب هو المفضل عند تمارا لكي تكشف عن كنوزها الكامنة ، وتنشر على العالم أركى ما عندها من نفائس العطر . ولعطر تمارا في الأنف لدعة مثل لدعة العسل في الفم ، فإذا الحديقة كلها بحيرة عسل ومسك . حتى موني جذبتها الرائحة فأقبلت وجلست تحت الشجرة تتشمم الهواء ، منصبة إلى ما تبقى في الدنيا من زرقرة خافتة للعصافير .

في فستانها الرمادي خرجت أمينة إلى الشرفة ، سائرة على مهل بالسبحة الطويلة ذات الحبات الصغيرة السوداء . ومثلما فعلت القطعة فعلت أمينة ، مدت أنفها لتملأ صدرها بالعطر الزكي الحراق وارتمت على شفتيها ابتسامة راضية ، إذ كانت أمينة واثقة من أن رائحة تمرحنة بالذات ما هي الا نفحة مباشرة من نفحات الجنة .

على النجيلة سارت حتى وصلت إلى الكرسي الأخضر فجلست عليه تواصل التمتمة بالأدعية والصلوات . وفي الفضاء الشاحب فوقنا ترددت أغنية الكروان الحزينة ، تدبذبت أنفاسها حيناً قبل أن تلب في قمم الأشجار العالية .

صوت عصفور حط على غصن من أغصان زهيرة ، بل هما في الحقيقة عصفوران . حوار ساخن بينهما ومشاحنة لا تليق بهذه اللحظة

الهادئة الفواحة بعطر الجنة . فارتعدت شفتا موئي مع شاربها كالعتاد في مثل هذا الظرف ، وتوتر جسمها كلها في حالة من التأهب الوحشي الصامت . فهذه نعمة من نعمات العصفير تعلمت القطط أن تحبها منذ فجر التاريخ ، اللحظة المبشرة بسقوط أحد المتصارعين صريعاً . وذات يوم سمعت موئي هذه النعمة وهي في شبابه ، وكانت مجلس هنا كما مجلس الآن ، فإذا بها تتحول فجأة من قطة إلى سهم مارق ، تتسلق جذع الشجرة وتتغلغل بين أغصانها ، وفي لحظة تعود بأحد العصفورين وقد أخرجه من عز المعركة ونزلت به لتأكله . كان ذلك زمان طبعاً ، أما اليوم فليس عندها سوى أن ترعش شاربها وتموء في مرارة .

وبقع من الألوان تتراقص في السماء ، وزقزقة هامسة لطيفة تنبثق منها . سرب من اليمام وليس بيمام ، يظهر دائماً في الصيف في هذا الوقت قبيل الغروب . تتقلب الطيور إذ تطير مثل الطائرات في يوم استعراض ، ومع تقلبها يتحول لونها من الأبيض إلى البرتقالي إلى الأخضر . سألت جمعة يوماً عن اسم لهذا الطائر فقال في بساطة :

- ده الوروار يا بيه .

فسألته بريية !

- يعني إيه ورور ؟

- عشان بيورور يا بيه ، موش سامعه سيادتك ؟

كنت أظنه يزقزق ، فإذا به في حقيقة الأمر يورور . وفي موسوعة مبسطة عن الطيور عثرت فعلاً على طائر باسم الوروار يحمل صفات هذا الطائر ، ويسمى أحياناً باسم آخر هو آكل النحل . فهو لم يطر إلى تلك الأعالي كما خيل إليّ من قبل لكي يمارس الحب أو العبادة ،

بل لكي يظفر بوجبة خفيفة قبل أن ينام . فهو يعرف أن النحل قد سبقه إلى تلك الأعالي لكي يتزاوج بعيداً عن تطفل الكائنات الأرضية ، وهناك في الأعالي الصامتة يستمتع الوروار الجائع وهو يتقلب بالتهام كل ما يصادفه من النحل الولهان .

ولقد سمعت الكثير عن دعوة الولى في ساعة المغربية ، لكن هله هي أول مرة أراها تستجاب أمامي بهذه السرعة . في آخر الحديقة سمعت صوتاً مكتوماً يرتطم بالأرض ، وهناك رأيت جسماً صغيراً يقفز ليظهر فيسقط ، ويقفز ثانياً فيسقط ، ولونه يتغير مع كل قفزة من الأبيض إلى الأخضر إلى البرتقالي . وفي لحظة واحدة لم أجد موني بجاني ، وكانت أشبه بحوت غطس في البحر بجاني وقب هناك عند الوروار الساقط . وفي اللحظة التالية كانت كل تلك التشكيلة من الألوان كتلة واحدة بين أنيابها ، وكالسهم المارق انطلقت به في مجاهل الحديقة وراء البيت . بدون أن أراها تخيلت أنيابها وهي تعمل بالنتف في الريش الأخضر والبرتقالي ، ثم وهي تنفوس في اللحم الطري الساخن الساقط لفوره من السماء وفي جوفه ثروة إضافية من النحل الطازج . وريش كثير ملون سوف أجده صباح الغد على أرض الحديقة ، وربما منقار وساقان ، بغير الوروار الذي تنتمي اليه كل تلك الأشياء . إلى الأعالي الصامتة طار الوروار لكي يظفر بأكلة نحل طازج ، وإلى الأرض سقط لكي تظفر موني بأكلة وروار طازج . لا لوم على موني فهي قطة ، وما هي إلا ولى طلبت من السماء عصفوراً يزفزع فأهدتها ورواراً بورور . وغير متوقع منها قبل أن تأكل الطائر أن تذبحه وتصفي دمه ، تلك الإجراءات الخاصة بالمتحضرين أمثالي .

في المسجد القريب دوى الميكروفون بأذان المغرب ، فنهضت أمينة

لتلبي النداء . لكنها توقفت حين سمعت صوت جمعة المبحوح من خلال
السور .

— مساء الخير يا بيه ، أنا عندي خبر ح يزعل سيادتك ، بس أنا عبد
المأمور .

فلعب الفأر في عبي ، إزاء هذا الصوت المنذر الذي لم أعهده من
جمعة .

— بشرفي يا بيه أنا كان ح يقطع عيشي امبارح . الحاج جه زي النوبة اللي
فاتت وبرضك حب يدخل بالمقطورة ما عرفش ..

وتريث فقلت في صبر نافذ :

— اتكلم وخلصني .

فقال جمعة في إيجاز حاسم ؟

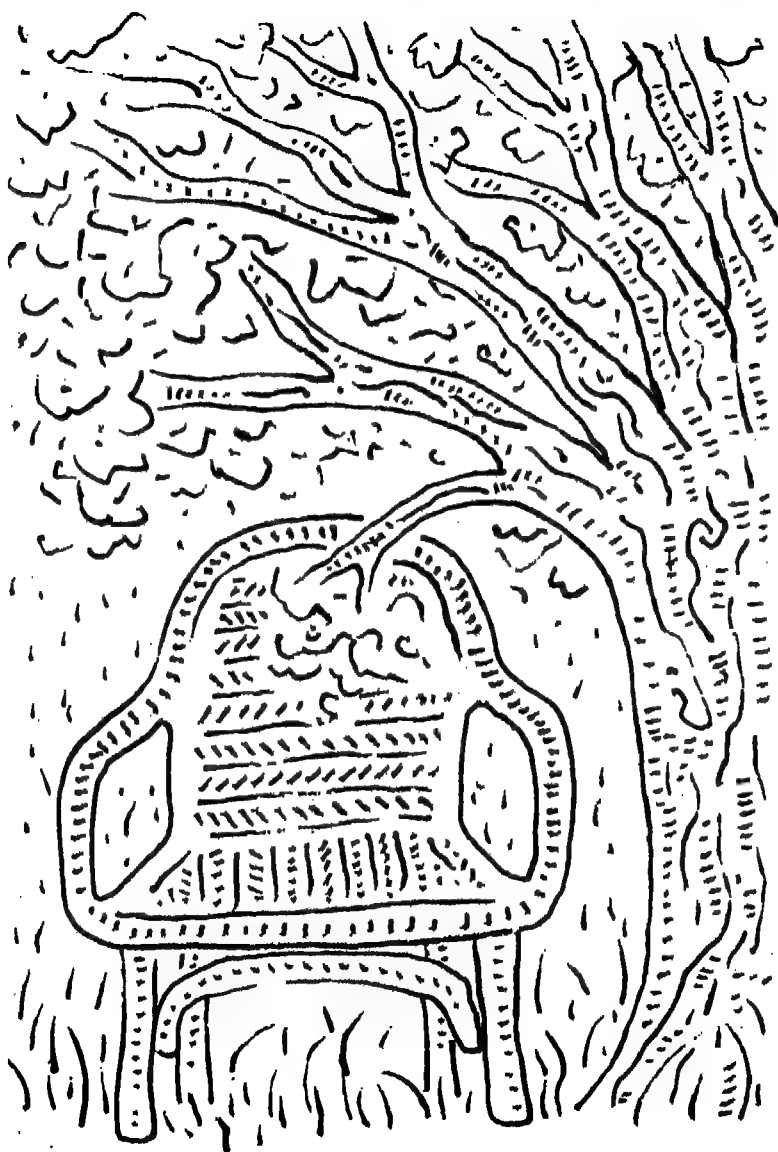
— الشجرة ح تنقطع بكرة يا بيه . أنا بس جيت إدي سيادتك فكرة ،
وأنا عبد المأمور .

نظرت إلى أمينة فوجدتها قد ركزت بصرها عليّ لتعرف كيف
سأبدو وقد سمعت ما سمعت ، ولا بد أنها رأت منظرًا محزنًا حقاً ، وإن
كان مكتوباً له أن يتحول في لحظة واحدة إلى منظر مضحك ، إذ
ضربت بقدمي على الأرض بقوة واضطجعت إلى الوراء على الكرسي ،
فإذا بي أميل فجأة إلى الخلف وأشرع في رحلة جديدة نحو أرض الوطن ،
جالساً كما أنا على الكرسي القش العتيق الأصفر . بسرعة تقدمت من
الأرض الطيبة حتى ارتطمت بها ، بعد محاولة فاشلة لاصطياد جذع
تمارا كما فعلت في المرة السابقة .

كنت دائماً إذا وقعت أحب أن أنهض بسرعة ، لكن يبدو أن
الدنيا قد تغيرت ، إذ أردت أن أحرك ساقي لكي أعتدل بالكرسي فتعلد

ذلك عليّ تماماً ، لا الساق اليمنى طاوعتني ولا اليسرى . فرفعت نفسي بالعافية حتى اعتمدت بمرفقي على الأرض ، ورأيت أمانة تضع سبحتها السوداء على الكرسي الأخضر وتأتي بسرعة لكي تنقذني . فانحنيت لكي تمسكني من الأبطين وتعيني على النهوض ، وبقوة جذبتني إلى أعلى وبسرعة ، فما كادت تفعل حتى تراخت قبضتها عني وتركتني أسقط من جديد . ويدها رفعتها لكي تضغط بهما على جانبي رأسها ، مترنحة تتأوه بصوت مكتوم . خلفها مدت يدها تتلمس الكرسي الأخضر فلم تجد إلا طرفاً منه ، وهمت بأن تجلس عليه فانزلقت منه إلى الأرض هي والسبحة السوداء .

سقطت جالسة أول الأمر ثم ارتمت على جنبها فوق النجيلة ، متكورة متفرفة ترتعد . ونجحت بعد حين في التخلص من ورطتي مع الكرسي الأصفر فأسرعت إليها وانحنيت عليها لأفحصها ، أمسكت فيها جسماً بارداً كالثلج يتصبب عرقاً ، منتفضاً على الأرض مثلما انتفض الوروار الساقط منذ قليل .



الفصل الثاني والعشرون

النهاية

طبعاً أتمنى أن أراها الآن ترفرف أمامي ، الفراشة البيضاء التي تزور الحديقة كل يوم ، لكن هذه مطالبة سخيفة للحياة بأن تغير من نظامها من أجل نزوة رجل عجوز مثلي . تلك الفراشة لا تأتي إلا في الصباح والشمس تغمر الدنيا بدفئها وضياؤها ، فما الذي يأتي بها الآن والشمس تقترب من المغيب ؟ إن النحل هو الذي يطير في هذا الوقت لكي يتزوج بعيداً في الأعالي الصامته ، والوروار يتبعه لكي يأكل ما تيسر من النحل المتيّم ، على صوت أغنية للكروان تذوب في قمم الأشجار العالية . وهذا الأخير بدوره ما أظنه قد طار وغنى لغرض أنبل بكثير من ذلك الذي من أجله طار الوروار وورور .

في الشرفة على الكرسي القش الأصفر بعد أن طهرته من هباب الياسمين ، وبعد أن سمحت لنفسني بأن أصب في الكوب الخزف البني شيئاً من نبيذ عمر الخيام الأحمر ، قبل أن يملأ كأس العمر - كما قال صاحب النبيذ - كف القدر . الكوب على السور الحجري للشرفة ، وفي الشرفة تطيب الجلسة في هذه الأمسيات الحارة حيث تتحرك بين حين وآخر نسمة متعبة ولا تضيق للفور بين أغصان الشجر ، وحيث تمتزج أنفاس ياسمينية المهذبة بأنفاس تمارا الخليعة في توازن معقول . وناظراً إلى تمارا التي بدأت تفاصيلها تختفي في الضوء الذي أخذ يشحب ، لا أجد مناصاً

من أن أعترف بأن قلبي لم يصف بعد من نحوها كل الصفاء .
نعم أعرف أنه لا يجوز لي وفقاً لأي نوع من المعايير أن ألقى على
شجرة تبعة كل ما حدث لي ولأمانة منذ أسابيع ، لكننا يجب أن نضع
في اعتبارنا أن تمارا لم تكن في أي يوم من الأيام مجرد شجرة ، انما هي
صديقة بكل ما تحمل هذه الكلمة من المعاني ، ومنها يتوقع الإنسان
كل ما يتوقع الصديق من الصديق لا سيما وقت الشدة . فإين كانت
صديقتي - أو على الأقل أين كان جذعها ، ساعة تلك السقطة المأساوية
التي حاقت بنا ونحن نجلس تحتها وفي حماها ؟

بل أنني لا أستطيع - وهذا هو الأدهى - أن ألوم ذلك الكائن الذي
كان هو السبب الرئيسي والفاعل الأصلي في المأساة كلها ، وهو الكرسي
القش العتيق الأصفر . مدى لحظة قررت أن ألومه فإذا بي أسمع من
ناحيته صراخاً مدوياً يقول :

- يا ناس خلوا ف قلبكو رحمة ! حرام عليكمو يا مسلمين ! عشرين
سنة وأنا شايلك على ضهري ما قلتش بم ، وبرضه موش عاجبك ؟
عشرين سنة وأنا مستحملك صبح وظهر وليل لما هديت حيلي قبل
الأوان ، وجاي دلوقت تقول لي أنا غلطان ؟ اتقي الله يا مفتري ! حط
ف عينك حصوة ملح يا ظالم ! خلي ف وشك حبة دم يا بارد !

فأمسكت من فوري عن لومه وقد فهمت مشاعره ، وبكل الحنية
الممكنة رفعتة عن الأرض وأنا أطبطب عليه ، وربما أكون قد قبلته
أيضاً . ثم حاولت أن أمرنه على أن يصلب حيله ليمارس وظيفته كسالف
عهده ، لكنه أعلن عجزه التام عن القيام بأية وظيفة من وظائف الكرسي ،
حتى بدون أن يكون قشا أو أصفر . فما كدت أرفع يدي عنه حتى
ترنح وسقط كالقتيل فوق النجيلة الخضراء الضاحكة من خيبته . فلم

أجد ما أفعله به سوى أن أسند ظهره إلى جلدع تمارا وأتركه هناك مثل خيال المآة متظاهراً بأنه كائن حي . ولكي لا يشعر بالوحدة تركت بجانبه كرسي أمينة القش الأخضر ، الذي لم يعد يجد من يستخدمه بسبب غلطة ذلك الدكتور الوجد الشبيه بالفأر .

إذ أصرت أمينة على فكرة الكونسولتو ، فأحضر لها الدكتور فتحي أخصائيين من زملائه يثق فيهما ، وكان أحدهما بديناً أسمر اللون مرحاً قال لأمينة وهو يفحصها :

— عيني عليكى باردة يا حاجة ! يا ريت صحتي زي صحتك !
وطلبوا كل ما يمكن أن يتخيله الإنسان من أنواع الأشعة والتحليل ،

واجتمعوا حولها ليفحصوها فقال الدكتور فتحي في سرور :

— الحمد لله ، ما فيش أي حاجة م اللي كنا خافين منها .

وأيد الطبيب السمين رأيه قائلاً :

— ألف مبروك يا حاجة ، براءة من كله !

وهنا تدخل الطبيب الثالث الشبيه بالفأر بوجهه الأسمر المشحوب وشاربه النافر ، فضحك ضحكة جافة لا طيبة وقال ساخراً :

— هها ، ده على كلام أجهزتنا !

فلم يعلق على كلمته أي من زميليه ، وأدرك هو غلطته فتحول إلى الكلام بالإنجليزية . وملثوا الروشة بأسماء الأدوية وجهاً وظهراً ، وقالت هي بعناد أعجبنى !

— موش بس أعرف بتعالجوني من إيه ؟ !

فقالوا لها إنها الأعصاب المتعبة التي لم تجد ما تعبر به عن نفسها سوى تلك الدوخة التي تشكو منها ، وما هي إلا أيام من العلاج والراحة في السرير والغذاء الصحي حتى تسترد صحتها وتنهض كالحصان .

- سي تس ا سي تس : سي تس ا
صرصار من صراصير الحقائق أرسل صغيراً قصيراً مستطعاً ،
فلما لم يسأل فيه أي صرصار آخر خجل من نفسه وسكت .

- كرررر ! كرررر ! كرررر ا
صوت العجوز موئي وهي تقرأ غير بعيد ، وأمانة تؤكد أنها قراءات
ذات طابع ديني ، مثبتة بذلك أن الالهة باسيت ما زالت تعيش بيننا
كربيبة لربة السحر إيزيس .

- سي تس ا سي تس ! سي تس ا
صغير جديد يجرب به الصرصار حظه إذا كان هو نفس الصرصار ،
فما كاد يطلقه هذه المرة حتى تجاوب معه للفور كورال من أصوات
الصراصير ، آحاد منها أول الأمر ثم عشرات ، ثم مئات ثم آلاف .
العقل العام للصراصير وقد قرر أن يتعاون جميع أفرادها فجأة وفي نفس
الوقت في ترديد نفس الأغنية .

ولعنة الله مرة أخرى على ذلك الدكتور ، إذ سرحت أمانة ببصرها
في ملاعة السرير البيضاء وهي تداعب سبحتها الطويلة السوداء ، ثم
توقفت فجأة عن التسييح لكي تقول متسائلة :

- هو موش يقول ان الكلام ده على أجهزتنا ؟
فقلت مستعبطاً :

- هو مين ؟ .

- الدكتور .

ووصفته وصفاً لا يترك أي مجال للشك في هويته ، ثم واصلت
أفكارها بقولها :

- يعني ممكن أجهزتنا دي تكون غلطانة .

- فلم أعلق بشيء بينما استرسلت تقول :
- يعني ممكن أكون عيانة وعيايا موش طالع في أجهزتنا !
- فأصررت على الصمت ، بل إنني غادرت الحجرة متعللاً بسبب
أو آخر ، وأن كنت أعرف من خبرتي بأمانة أنها لن تترك الأمر يتوقف
عند هذا الحد . فلما كان اليوم التالي أفرغت ملعقة دواء في فمها وهزت
أسها متخلصة من مرارته ثم قالت :
- هني ممكن جداً أكون عيانة بمرض خطير وما حدش داري !
- فلما رأيته مصراً على الصمت رجمتني بنظرة غيظ وقالت !
- ما بتدش ليه ؟
- فقلت متنهداً :
- أقول إيه لواحدة عاوزة تعبي نفسها بالعافية ؟
- أنت موش سمعت الراجل بودنك ؟
- أيوه سمعته ، وممكن جداً لجهاز ولا اثنين انهم يغلطوا . لكن موش معقول
كل الأجهزة تغلط نفس الغلطة ف نفس الوقت !
- فقلت مقاوحة :
- مش معقول ليه ، ممكن !
- وسكنت إلى اليوم التالي ثم قالت لي بصوت أكثر من المعتاد نعومة :
- أسألك سؤال ونجاويني بصراحة ؟
- فتثقل قلبي بين أضلاعي ، إذ كنت أعرف جيداً ما هو ذلك السؤال .
- وواصلت هي باسمه :
- بس ما فيناش من زعل .
- فقلت في يأس :
- ربنا ما يجيب زعل .

قترددت لحظة حتى استجمعت شجاعتها وقالت :

- تزعل مني لو سافرت وسبتك جمعيتين ثلاثة ؟

ثم أضافت بسرعة مستوثقة :

- تزعل قوي يعني ؟ !

فقلت وأنا أعرف الجواب :

- تسافري على فين ؟

- وأنا لي مين غير حبيبي حمادة ؟

وشرحت لي كيف أن تذكرة الطائرة معها ، والإقامة هناك عند حبيبها (أرجو أن يكون في أمريكا مقابل غذائي للفول والطعمية) ، ولتغطية المصاريف الطبية ستبيع اسورتين وعددا من الغوايش المركونة عندها في قاع الدولااب بلا فائدة فإذا ينقصها ؟

- والنبي لولا حامله همك أنت لسافرت النهاردة قبل بكرة ! أشوف الأجهزة اللي هناك ح تقول إيه واطمن على روحي .

فتذكرت ذلك العالم النفسي الذي اتهمني بأنني أتمنى موتها لأنني أسرف في القلق عليها ، فإذا يقول اليوم لو رأيي أفعل العكس فأسرف في الاستهانة بأمر مرضها وأحرمها من رحلة علاج تشبهها حتى لو كنت أعرف أنه لا جدوى منها ؟

قلت في مزيج من الإخلاص والاستسلام :

- ما تحمليش همي يا أمينة ، سافري إذا كنتي عايزة .

وفي حجرة النوم الصامتة ، ولأول مرة منذ سنوات طويلة ، وجدتي وحدي أشبه بطفل صغير خائف . والبسمة التي تغالب الظهور في صورة إبراهيم على الحائط خيل إلي أنها قد ظهرت فعلاً ، وبين النوم واليقظة أتاني صوت الولد المفقود يقول :

- أنت ليه زعلان يا بابا عشان ماما جاية لي ؟
فقلت له في دهشة :
- أنت مين قال لك انها جاية لك ؟
- موش ركبت الطائرة النهاردة الصبح ؟
- آه لكن موش جاية لك ، دي رايحة لأخوك في أمريكا . هي الناس
بتسافر عندكوف طيارات ؟
- أنا ما قلتش كده !
- أمال قلت إيه ؟
- ولا حاجة !
- وراح يتسم لي عن أسنان بيضاء لامعة وسط وجه تحول فجأة
إلى فحمة سوداء .
- آووو ! آووو ! آووو !
- صوت غليظ علا فجأة على صوت الصراصير ، صوت ضفدع
أرجو أن يكون صديقي ضفدوع . وللفور تبعته سائر الضفادع وانضمت
بالغناء إلى هذا الحفل المفتوح ، صوتها الغليظ الأجوف هو خير خلفية
لسرعة الصراصير . أرجو أن تكون بركة المياه التي وجدتها الضفادع
مكونة من ماسورة مياه مكسورة لا من طفح المجاري ، وأن كان مستبعداً
طبعاً أن يتأثر الصوت بنوعية الوسط الذي ينبعث منه .
- وهذا الضجيج كما يشيعون هو نداء من الذكور إلى الإناث بقصد
اغوائهن ، الأمر الذي إن صح فهو دليل على أن ذوق الضفدعة غريب
نوعاً . وعلى أي حال فجدير بنا ونحن نتوسع في تطبيق الأفكار الفرويدية
على الجنس البشري ، أن نقتصد في اقحامها على أجناس أخرى محترمة
مثل جنس الضفادع .

- كرررر ! كرررر ! كرررر !

ربييه إيزيس تحيك يا أمينة ، وتدعو لك دعوة مخلصه اعتقد أنك محتاجة إليها ، حيث تعيشين وسط شعب - إذا صدقت أفلامه - نصفه لصوص وقطاع طرق والنصف الآخر يجري تحت سبل من الطلقات الثارية التي لا تنقطع . وأرجو أن يكون حمادة موجوداً معك عند اللزوم ليساعدك على الجري ، في البلوفر الصوف الأزرق الذي سهرت بجاني تنسجينه بجانب المدفأة المشتعلة . ترى هل نشترك مرة أخرى في تلك الجلسة اللطيفة الدافئة ؟ ولماذا لم تكتبي لي حتى الآن إلا ذلك الأخطار الموجز بأنك قد وصلت إلى لوس انجيلوس بالسلامة ؟

- طاخ ! طاخ ! طاخ !

صوت يبدو أنه يحتاج إلى وقت طويل لكي يُدفن في أعماق عقلي الباطن مع سائر الجثث المدفونة هناك . أمينة نفسها بكت يومها حيث جلست على سريرها ، وقالت بصوت تخنقه العبرات :

- صحيح ما باحباش لكن بتقطع قلبي !

صوت طرقات الفأس على جذع الطويلة الرشيقة رينا في ذلك اليوم المشوم ، ليكسروه . فلما كسروه ألقوا بحبل طويل على عنقها ليخنقوها ، وبه راحوا يجذبونها لتسقط حيث قدروا لها من أرض الشونة . لكنهم أخطئوا في حساباتهم طبعاً ، وما كان لرينا أن تسقط حيث قدر لها المجرمون . هي مالت وفقاً لرغبتها الخاصة نحو البناء الأصفر المشقق ، متجهة مباشرة إلى النخلة الغبراء رفيقة عمرها في الشونة ، أحاطتها بغصونها واحتضنتها وكأنما أقسمت يميناً ألا تصل إلى الأرض إلا بها . وذرة واحدة من المقاومة لم تظهرها النخلة العتيقة كأنها كانت تتطلع من زمان

وبشوق إلى هذا اليوم المفترج الذي تريح فيه جذعها المائل على صدر أمها الأرض .

أما عنك أنت يا جمعة فيؤسفني أن أصارحك بأنه لا يسعني إلا أن أضحك عندما أحاول أن أتخيل شعورك وقد فوجئت بنفسك طريحاً على الأرض وفوقك شجرتان أحدهما طويلة رشيقة وكانت مهندمة ، وفي حضنها نخلة غبراء تتدلى منها سباطة بلح أحمر تناثرت حباتها على أرض الشونة ، فراح الرجال يلتقطونها ويقرشونها وهم يحاولون تخليصك من الشجرتين .

حادث كان ممكناً جداً أن يموت فيه جمعة ، بل الغريب حقاً أنه لم يمت . فن هنا يمكننا أن نفهم المزيد عن طبيعة الرشيقة رينا ، كيف أنها لم تكن رشيقة وجميلة فحسب وانما كانت في الوقت نفسه - على عكس معظم الجميلات - رحيمة القلب أيضاً - صحيح أن جمعة قد طاب نفساً بأن يذبحها بعد تلك العشرة الطويلة ، لكنه كان مضطراً إلى ذلك في سبيل لقمة عيشه . فكان كافياً في عرف رحيمة القلب رينا - بدلاً من عقوبة الموت القاسية - أن تكسر له رجلاً واحدة لا غير ، ورجله اليسرى لا اليمنى زيادة في الرأفة به .

أسبوع واحد قضاه جمعة في المستشفى ثم خرج بتلك الساق المجبسة البيضاء . فذهبت لأزوره في الشونة حيث وجدته جالساً أمام البيت المشفق ممدود الساق وحوله عدد كبير من العصافير تنقر في الأرض مع الفراخ التي ربما كانت بينها تلك الفرخة التي تريد دائماً أن تبيض . ومن داخل البيت ترامي إلى صوت الطفل الجديد وهو يبكي ، وبكاؤه قد بدأ يتحول إلى ذلك الصرير الصديء القديم ، وإن لم يصل بعد إلى درجة الثبوت على كلمة آه .

وقال لي جمعة باسمًا وهو يتحسس ساقه المجبسة !

- طب والنبي أنت فيك شيء لله يا بيه !

فسرتني الكلمة وإن كنت لا أعرف سببها ، واسترسل قائلاً :

- ده ذنب الشجرة اللي سيادتك بتحبها ! دى جزائي عشان قطعها !
وبالرغم من سخافة الفكرة فقد أشاعت في نفسي نوعاً من السرور

الخفي ، واسترسل :

- ولما جيت أقطعها النوبة اللي فاتت ، تاني يوم شحانة مات ! والحمد

لله اللي جت على أد كده ، ده لولا ان قلبك طيب كنت رحت فيها !
وسوف يحتاج إلى عكاز طبي لمدة لا يعلمها إلا الله ، وأرخص
عكاز طبي في السوق ثمنه عشرة جنيهات . وكان يعرف بنجته الفطري
أنني محتاج إلى أن أدفع له نصف هذا المبلغ على الأقل ، لكي أتحفف
من مشاعر الذنب التي نجح بكلامه في أن يغرسها في نفسي .

- كرررر ! كرررر ! كرررر !

لا شك يا مولاي أنها كانت لفظة حلوة منك ، أن سمحت لصوتك
الحبيب بأن يبقى معي في وحدتي . نعم أعرف أنه كان أفضل عنك
أن تدفني تحت زهرة وتمارا لتكوني معنا دائماً كسالف العهد ، لكنني
كرهت لك أن تكوني موطن الأقدام طول الوقت . وأنا واثق من أنك
ستكونين سعيدة هناك في ذلك الركن الأمين بجانب ليلى ، إذ أشعر بأنك
أنت الأخرى - لا تكذبيني من فضلك - كنت تريد أن تقولي شيئاً .
- أنا عارفة أي ح اموت قبلها .

هكذا كانت أمينة تحب أن تقول دائماً ، والحمد لله الذي خيب
ظنك يا أمونة . وإذا سألتني كيف وقع الأمر فأنا في الحقيقة لا أعرف
على وجه اليقين . كل ما أعرف هو أنني كنت قد قطعت الطرقة الطويلة

ووصلت إلى الصالة في طريقي إلى المطبخ لكي أعمل الشاي ، إذ حانت
مني لفظة نحو المدفأة فرأيتها ملقاة هناك على البساط النيتي العتيق . نعم
كانت ملقاة هناك لا نائمة ، إذ كانت موئي تعرف دائماً كيف يجب
أن تنام . كانت تضم ساقها وذراعيها وذيلها وتريح ذقنها البيضاء على
ساعدتها الأسود ، وأذاها مطرقتان حتى وهي في عز النوم . أما هذه
المرّة فكانت القطة ساقطة هناك لا نائمة ، مترامية الأطراف بدون أي
محاولة نظام فتقدمت نحوها متلصصاً لسبب لا أفهمه ، ومرة أخرى
وجدتني أجابه ذلك السكون الرهيب الذي خبرته من قبل في صوت
سيده - اللانبض واللاحركة والانتماء نهائياً إلى نسيج هذا العالم الحي .
فكاها متباعدان مثل فكي تمساح ، وأنيابها بارزة وفمها كهف كبير
مظلم . مستحيل طبعاً أنها كانت تريد أن تلتهم شيئاً ، ومستبعد أنها
كانت تعوي ، فما من تفسير للأمر إلا أنها كانت تتشاءب . في جسمها
الواهن المتعب شعرت بدبيب أقدام الموت الباردة فقصدت إلى المدفأة
تنشد الدفء ، مؤمنة حتى النهاية بأنها قادرة على إشعالها بقوتها السحرية ،
هي الالهة باسيت روح إيزيس ربة السحر وهناك أمام المدفأة توقفت
لحظات تتساءل أين هي وماذا تفعل ، ثم وجدت نفسها تهالك على
الأرض قهالكت ، وفي هدوء وكبرياء تشاءبت وماتت ، وحدها هناك
على البساط النيتي العتيق .

نعم كنت أحب دائماً أن أشفع هذا الصوت بالمسح في حنان على
ظهر صاحبه الناعم الأسود ، وبحس أسفل عنقها الأبيض المرتعش
بذبذبات القراءة ، أما الآن فليس أمامي سوى أن أستمتع بالصمت
وحده .

وفي آخر الشونة وهج لإحدى جمرات الفحم في جوزة جمعة ،

أنخله يسندها إلى ساقه المجبسة لكي يصلح شأن الجمرات ويسعل .
والكوخ الحجري شبح في الظلام لقبر كبير ، في جوفه جمعة وأسرتة
والعصافير والأسمت . شيئاً فشيئاً بدأت تستبين زواياه وترسم على سماء
آخذة في الاصفرار ، مع ظهور ذلك الجسم النحاسي فوق سقفه مثل
عين فضولية تتلصص على أتباعها من مجاذيب القمر . الربع الأخير
من شماعة اسماعيلوية كبيرة صفراء بلون الشواطىء الرملية للترعة ،
حيث ألقى بنفسه ليترد ذلك الذي جاء من أقصى سيناء يجري . بل
هي كتلة سوداء متفحمة سرقت من الشمس بريق شعاع أصفر ، جامدة
هامدة جرداء لا حياة فيها ، وآثار بين بحر العواصف وبحر الظلمات
لأحذية المغامرين الأمريكيان الذين هبطوا هناك يوماً . عسى أن تكون
الأجهزة التي وصلت إلى القمر قادرة على أن تصل إلى سر دواختك يا
عزيزتي أمونة .

— سي تس آووو ! سي تس آووو ! كررررر !

الأصوات تتداخل وتندمج وتذوب في صوت واحد شجي وجليل ،
وصوت جديد بدأ يتسلل إلى المعروفة في حياء أول الأمر ثم في جراءة
وانطلاق . شبيه بصوت الوتريات وهي في ذروة نشوتها ، وبحيرات
خضراء معتصرة من جوف البحر الأزرق العظيم الفائر . شعاع ضوء
يمجد في الفضاء بعد أن مرروه خلال وعاء من البللور مليء بالنبيذ الكوني ،
الذي بدموا في تعتيقه منذ مليون سنة ضوئية . فلو أن أمينة هنا لأقسمت
أن هذا صوت الملائكة وقد تنزل كورال منها ليبارك حديقتنا الصغيرة
الطاهرة . هذه أسهل عندها من أن تعترف بأن هذا هو صوت الشجر
يسمعه وقتما يشاء لمن يشاء من أحبابه . وأنا واثق من أن ليفا قد قالت

الليلة كلاماً ضاع في هذا الزحام ، حيث وقفت تداعب بمنورها هيكل
موني المتثاقبة إلى الأبد .

ونبرة معدنية ميزتها أذني وسط كل تلك الأصوات ، وماذا يمنع
النمل من أن يشترك هو الآخر في الزفة من أعماق جحوره الرطبة المظلمة ؟
وهذا الصوت الآخر الرقيق الشجي ، مثل قطرة ندى أو بقعة ضوء ترقص
تحت تمارا ، المتسلل إلى القلب من خلال غلالة رقيقة من الرحيق ،
من يمكن أن يصدره سوى الفراشة الصغيرة البيضاء ؟

وفي الفضاء البعيد صدى مرتعش لضحكة صغيرة لا خشنة ولا
ناعمة ، مصحوبة بدعوة لي باكتمال العقل . وأصوات أخرى غريبة
بدأت تتطفل على المعزوفة وتفسد جلالها ، فلعله يحسن بي أن أنهض
للنوم بعد أن أرشف القطرة الأخيرة في الكوب الخزف البني . نعم يحسن
بي أن أنهض وبسرعة قبل أن أتورط في مهارة سوقية مع ذلك الصوت
الذي أسمعه آتياً من بعيد وهو يقول لي بضحكته الوقحة أن هاوهمع أو .

المحتويات

صفحة

٤	تقديم
	الفصل الأول :
١٠	الفراشة البيضاء
	الفصل الثاني :
١٨	أمنية وحماة وفيدو
	الفصل الثالث :
٢٦	رينا والنخلة وذكر البط
	الفصل الرابع :
٣٤	فضيحة في عالم الحداثتي
	الفصل الخامس :
٤٠	فضيحة الهدهد
	الفصل السادس :
٤٦	بجانب المدفأة
	الفصل السابع :
٥٤	موني

صفحة

	الفصل الثامن :
٦٢	الشجرة الغريبة
	الفصل التاسع :
٦٦	فيدو يتشمس - رسالة حمادة والدوخة
	الفصل العاشر :
٧٢	الولد يلعب
	الفصل الحادي عشر :
٧٦	موني والصفدة
	الفصل الثاني عشر :
٨٢	رينا والملوك الحارس
	الفصل الثالث عشر :
٨٨	موت شحاتة
	الفصل الرابع عشر :
٩٤	أمينة في السرير وشاي بالياسمين
	الفصل الخامس عشر :
١٠٠	القطعة والسحلية
	الفصل السادس عشر :
١٠٤	الياسمين على البساط
	الفصل السابع عشر :
١١٠	فرس النبي

صفحة

	الفصل الثامن عشر :
١١٨	النمل وأمي وجمعة
	الفصل التاسع عشر :
١٢٤	موت فيدو
	الفصل العشرون :
١٣٠	من هي الشجرة ؟
	الفصل الحادي والعشرون :
١٣٦	السقوط العظيم
	الفصل الثاني والعشرون :
١٤٤	النهاية

مطالع الشر وقسـ

٢١٥١١ ٢١٥٥٩ - خطاب، ٨٦٤ - مسند، ٨٦٤ - خطاب، ٢١٥٥٩ ٢١٥١١
٧٧٤٥٧٨ ٧٧٤١٤٤ - خطاب، ٧٧٤١٤٤ ٧٧٤٥٧٨ - خطاب، ٧٧٤١٤٤ ٧٧٤٥٧٨

